منهج الإصلاح والتغيير عند النورسي

الأستاذ عبدالله الطنطاوي

مدير مؤسسة يمان

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله، والصلاة والسلام على مصطفاه، وبعد:

فهذه بضاعة مزجاة، يقدّمها عبد فقير قليل، عن عظيم من عظماء أمتنا الإسلامية في عصورها الحديثة، تتناول محوراً من محاور شخصيته العملاقة، هو عبارة عن ملامح في خطة عظيمنا: بديع الزمان النورسي – خطّته الإصلاحية، ومنهجه في التغيير لمجتمع كان مسلماً، نقياً، مجاهداً، ثم غزاه الغزاة من الخارج، واصطنعوا له صنائع يغزونه من الداخل، ليحطّموه، ويلغوا شخصيته، ويبدّلوا هويته، ويمسخوه مسخاً؛ ليغدو قزماً يتمسّح بعتبات عملاق شاكي السلاح، السلاح المادّي الذي يقتل به ويدّمر، والسلاح الفكري الظهير لذلك السلاح، بل كان الممهّد له في العقول والنفوس التي تربّت على أعين حاسدة حاقدة، طالما خططت ودبّرت للإجهاز على (الرجل المريض) فكانت المؤتمرات المؤامرات، وكان الغزو من البرّ والبحر، وكانت الخيانات سلوكاً لناسٍ غُدُرٍ، ائتمنتهم الأمة في غفلة منها ومن أولياء أمورها الحاكمين، فلم تنتبه ليهودية مطلية بطلاء زائف جاز على المسؤولين، فحسبوا أصحاب الطلاء مسلمين، ولم يعوا حقيقة الأقنعة وما تخفي تحتها من سخائم وضغائن، وكيد وتآمر، وأحقاد تاريخية، وتطلعات توراتية تلمودية، واستراتيجيات وتكتيكات يرسمها دهاقنة المحافل الماسونية التي انتشرت هنا وهناك وهنالك، وتحت أسماء صريحة حيناً، خفيّة حيناً آخر.

عصر النورسي

لن نستطيع معرفة مدى الظلام الذي خيّم على تركيا بعد ما يسمى بالانقلاب العثماني، وسقوط السلطان عبد الحميد الثاني، وسيطرة (الاتحاد والترقي)، والقوميين الطورانيين الذين وصلوا بدولة الخلافة إلى حضيض التمزق، والتشرذم، والتخلف

السياسي، والعسكري، والاقتصادي، والفكري، والخواء الروحي إلا إذا كنّا على اطلاع دقيق على حالة الفوضى التي عمّت البلاد التركية، بعد الاحتلال، وبعد التحرير، وما تبعها من مجازر قامت بها السلطة العلمانية ضدّ كلّ من تشتمّ فيه رائحة الإسلام، والتصدّي للعلمانية.. وعمليات قتل علماء الدين كانت نهجاً لحكومة مصطفى كمال، ولم ينجُ من العلماء إلا من هرب بدينه ودمه وأهله إلى البلدان المجاورة، أو من ناور، أو سار في ركاب العلمانيين، من ذوي النفوس الهزيلة التي لاتهمّها إلا مصالحها الشخصية، وتسعى وراء المنصب والمال.

وقد سمعنا من بعض الذين لقيناهم من المهاجرين أبناء العلماء الفارّين بدينهم، ما تقشعر له الأبدان، وتُدمي القلوب والنفوس.

عايش بديع الزمان النورسي أحداثاً جِساماً، كان أشدّها على نفسه، ذلك الغزو الثقافي والفكري، الذي تقوم به الدوائر الاستعمارية، وربائبها في الداخل، من خلال مؤسسات، لها امتدادات خارج البلاد، في أوروبا الحلفاء المنتصرين.. وتغذّيها المحافل الماسونية، ودعاة العلمانية والقومية والماركسية.. حتى صار المسلمون في تركيا الحديثة، كالقطعان الهائمة في الليالي المطيرة. كانوا كمن فقد وزنه.. مسلوبي الإرادة مستذلين مهانين، مستكينين للظالمين الذين أوقعوا بهم.. فساد إداري محموم، وعجز اقتصادي مريع، وديون مرهقة، وتخلّف وجهل، وفقر ومرض، وانحلال وفساد خلقي منظّم، ممنهج.. وحُماتهم لصوصهم، وأجهزة الأمن أجهزة قمع وفساد وإفساد..

الحاجة إلى إمام مجدّد

ما كان الله ليذرَ المسلمين على ماهم عليه، وعلى ما أرادهم لهم أعداؤهم في الخارج والداخل، فقد تكفّل الله سبحانه أن يبعث لهذه الأمة من يجدّد لها أمر دينها على فترات، وفي أماكن شتّى، وكان مدد الله لهذا الشعب المسلم المظلوم، واضحاً في هذا الرجل الذي أطلق عليه بعض الدارسين اسم (رجل القدر)[1]. كما أطلق عليه أساتذته وعارفوه لقب (بديع الزمان)[2] هذا الرجل العالم الرباني الذي كان

---

(١) أورخان محمد علي، سعيد النورسي رجل القدر في حياة أمة.

(٢) ترجمة حياة سعيد النورسي، ص ٣٦.

يملك بين حناياه قلباً ذكياً، وعقلاً حصيفاً نقياً، ونفساً أبيّة، وروحاً عملاقة، وإيماناً شامخاً، وعلوماً يحار المرء وهو ينظر إليه، كيف حواها في صباه وشبابه المبكّر، وكيف حملها في هذا الرأس العجيب المستنير بأنوار القرآن، مع أنه «قد طوى في جوانحه كل آلام تركيا وعذاباتها في تلك السنوات الحالكات.. في وطن خربت معظم مرافقه ومدنه وقراه، بعد سنوات الحرب العالمية الأولى، وسنوات من حروب الاستقلال.. وقُتل معظم شبابه..)[1].

ونسينا أن نقول: إن النورسي كان يملك سلّة فيها كل ما يملكه في دنياه: إبريق شاي، وبضعة أقداح، وقليل من السكر والشاي، وقليل من الزبيب، وسجّادة الصلاة..)[2].

ولكنه كان يحمل في عينيه ولسانه وقلبه وعقله مصحفاً، هو أستاذه وشيخه ومرشده في دنياه وأخراه، ومن أراد أن يرى الإيمان والقرآن والإسلام متمثلة في رجل يمشي على قدمين، فيما تسبح روحه في ملكوت السماوات والأرض، فلينظر إلى النورسي، أو فليقرأ سيرته وكلماته، وليتأمل كل كلمة خطتها يراعة روحه، بمداد الوعي والزهد والعلم والإيمان والصبر.

هذا الرجل الذي كان آية من آيات الله في الصبر والمصابرة، والمثابرة، وفي الشجاعة والإقدام، وفي الوعي والإخلاص والحركة، وفي التفاؤل والأمل الذي لم يفارقه لحظة من لحظات حياته، برغم ما يحيط به من ظلم وّظلام وظلام .. الرجل الذي أخذ نفسه بالعزائم في سائر أحواله، فكان الطود الصامد في وجه الأعاصير. الرجل الذي أدركته وشملته دعوة الرسول القائد – عليه الصلاة والسلام – «رحم الله امرءاً عرف زمانه، واستقامت طريقته». هذا الرجل ، كان المجدّد في بلاد الأناضول، كما كان حسن البنا في بلاد العرب، والمودودي في شبه القارة الهندية..

المؤثرات في تكوينه الفكري

من دراسة حياة الإمام النورسي، نستطيع أن نتبين نوعين من المؤثرات التي كوّنت شخصيته الفكرية:

---

(١) أورخان محمد علي، ص ٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥ – ٦.

١ - **المؤثرات الاجتماعية: وتشمل:**

أ – أسرته الصغيرة المكوّنة من أب تقي ورع، بلغ به ورعه شأواً صار فيه مَضْرِب الأمثال، فالوالد الصوفي (ميرزا) لم يذق حراماً قط، ولم يطعم أولاده من غير الحلال، حتى إنه كان إذا رجع ببقراته من المرعى، شدّ أفواهها لئلا تأكل من مزارع الآخرين[١].

وكانت أمّه الصالحة التقيّة (نورية) لا ترضع أطفالها إلا وهي على طهر ووضوء[٢]. وقد قال النورسي عنها يوماً: «أقسم بالله، إن أرسخ درس أخذته، وكأنه يتجدّد عليّ، إنما هو تلقينات أمي –رحمها الله– ودروسها المعنوية، حتى استقرتْ في أعماق فطرتي، وأصبحتْ كالبذور في جسدي، في غضون عمري الذي يناهزالثمانين، رغم أني قد أخذت دروساً من ثمانين ألف شخص. بل أرى يقيناً أن سائر الدروس إنما تُبنى على تلك البذور»[٣].

وكذلك أخوه الكبير الملا عبد الله الذي عُرف بعلمه ودينه وتقواه .

ب – قريته الصغيرة المحافظة، والقرى والبلدات القريبة منها، وكتاتيبها ومشايخها، وأهلها البسطاء الطيبون المحافظون على دينهم، وقيمهم المتمثلة بعادات وتقاليد منسجمة مع الدين الحنيف: بساطة وصدق، وعفوية، وكرم وشهامة ونبل، برغم ضيق ذات اليد، وبرغم الجهل والفقر والبؤس والتعاسة.

٢ - **المؤثرات الثقافية:**

أ – يعدّ النورسي الشيخ عبد القادر الكيلاني –رحمه الله– أستاذه الأول في كتابه: (فتوح الغيب). يقول النورسي عنه: «وبدأت أقرأ ذلك الكتاب، كأنه يخاطبني أنا بالذات.. كان شديد اللهجة، وقد حطّم غروري، وأجرى عمليات جراحية عميقة في نفسي.. استفدت منه فوائد جليلة، وأمضيت معه ساعات طويلة، أصغي إلى أوامره الطيبة، ومناجاته الرقيقة»[٤].

---

(١) إحسان قاسم الصالحي، بديع الزمان سعيد النورسي، ص ١٩.

(٢) المصدر نفسه، ١٩.

(٣) سعيد النورسي، اللمعات، ص ٣٠٨ – ٣٠٩.

(٤) سعيد النورسي، المكتوبات، ص ٤٥٩.

ب- الشيخ العالم الرباني أحمد الفاروقي السرهندي- مجدّد الألف الثاني - في كتابه: (مكتوبات) الذي «ورد في رسالتين منه لفظة (ميرزا بديع الزمان) فأحسست كأنه يخاطبني باسمي، إذ كان اسم أبي (ميرزا).. والإمام الرباني يوصي -مؤكداً- في هاتين الرسالتين، وفي رسائل أخرى أنْ: (وحّد القبلة) أي اتبع إماماً ومرشداً واحداً، ولا تنشغل بغيره»[1].

جـ - علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة ولغة وسواها، تلك التي تلقاها على أيدي علماء قريته والقرى والمدن الأخرى، وقد حفظ - في شبابه المبكر- الكثير من متون أماتها بل من أمات الكتب الكبيرة، حتى القاموس المحيط - للفيروز أبادي- حفظ منه حتى حرف السين[2].

د - العلوم الإسلامية، من حديث شريف، وفقه، وأصول فقه، وتفسير، وعلم كلام وسيرة وأخلاق، وسواها من العلوم التي تدور في فلكها[3].

هـ- العلوم الكونية الطبيعية من فلك، وفيزياء وكيمياء، وعلم طبقات الأرض، وجغرافيا، وفلسفة حديثة، وتاريخ، ورياضيات، وسواها[4].

و - الغرب، وفكره المادي، وفلسفته القديمة أيام اليونان القدماء أو الإغريق، وفلسفاته الحديثة وكلها مادية المنطلقات والغايات. درسها، واستوعبها، واتخذ منها الموقف المناسب.

ز - أسفاره: فقد كان يتنقل في المدن والقرى، ويلتقي العلماء والوجهاء وعامة الناس، ورجال الحكم والإدارة، كرحلته إلى الأستانة (استنبول) والتقائه السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان رشاد والوزراء ومصطفى كمال، وكرحلته إلى طرابلس الغرب وبنغازي، حيث اتصل بالشيخ السنوسي، واطلع على تنظيمات الحركة السنوسية وزواياها، وتأثر بها، الأمر الذي جعله -بعد أن عاد إلى مدينة وان- يعمد إلى تشكيل فرق جهادية من طلابه وبعض المتطوعين، وقاتل بهم الجيش الروسي الذي اجتاح مدينة بتليس، فأُسر إثر جرح بليغ أصابه.

---

(1) المصدر السابق والصفحة.

(2) د. محسن عبد الحميد، النورسي الرائد الإسلامي الكبير، ص ١٣.

(3) المصدر السابق والصفحة.

(4) حياة النورسي، ص ١٠٢.

وكرحلته إلى بلاد الشام، والتقائه علماءها، وإلقائه خطبته الشامية البليغة في المسجد الأموي عام ١٩١١م وفيها شخّص أمراض الأمة الإسلامية، وعلاجاتها[١].

ح - ولكنّ المؤثر الأكبر في تكوينه الفكري والروحي والنفسي، إنما هو القرآن العظيم، فهو الأستاذ، وهو المرشد، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وفيه يكون توحيد القبلة، لا في سواه.. يقول الأستاذ النورسي:

«إن بداية هذه الطرق جميعها، ومنبع هذه الجداول كلّها، وشمس هذه الكواكب السيارة.. إنما هو القرآن الكريم، فتوحيد القبلة الحقيقي لا يكون إلا في القرآن الكريم.. فالقرآن أسمى مرشد، وأقدس أستاذ على الإطلاق.. ومنذ ذلك اليوم أقبلت على القرآن، واعتصمت به واستمددت منه (فالكلمات) والأنوار المستقاة من القرآن الكريم (أي رسائل النور) ليست مسائل علمية فحسب، بل هي مسائل قلبية، وروحية، وأحوال إيمانية، فهي بمثابة علوم إلهية نفسية، ومصارف ربانية سامية»[٢].

هذه هي المؤثرات الاجتماعية والثقافية التي عملت على تكوينه الفكري، فجعلت منه عالم عصره، وأهّلته لاقتحام ميادين الحياة الفكرية والعقدية والسياسية.

ولا نستطيع إغفال جهده الشخصي في هذا التكوين البديع، الذي جعله ينال الإجازة العلمية من الشيخ محمد جلالي وهو ابن أربع عشرة سنة، بعد أن تبحّر في العلوم العقلية والنقلية، وحفظ ثمانين كتاباً من أمّات العلوم العربية والإسلامية.. هذا التكوين هو الذي أهّله لخوض سائر جوانب الحياة الفكرية والعقدية، وتبيين رأي الشرع في العديد من المسائل الدقيقة، كالقضاء والقدر، وحكمة خلق الإنسان، والعالم، والروح، ودمار العالم ومسائل المسيح الدجال، ونزول سيدنا عيسى عليه السلام، وظهور المهدي، وشخصية الخضر، ومسائل أخرى حول الملائكة، والجن، وأشراط الساعة، وثواب الأعمال، وغيرها كثير من المسائل الغيبية، تقرؤها في مجموعة (الطلاسم)[٣] وسواها من كتاباته التي تؤكد أنه عالم لا يشق له غبار، بل بحر من العلم لا ساحل له.

---

(١) الصالحي، ص ٣٦.

(٢) المكتوبات، ص ٤٥٩.

(٣) الصالحي، ص ١٩١.

منهجه في التعامل مع الخلافات الفكرية

يقول الله تعالى: ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمّة واحدة، ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم﴾[1].

فالاختلاف ظاهرة طبيعية لتباين العقول والمدارك والتصورات والأفكار، «وكل تلك الأمور تفضي إلى تعدد الآراء والأحكام، وتختلف باختلاف قائليها»[2] وقد تباينت آراء العلماء في الاختلاف؛ فمنهم من عدّه شراً كلّه كابن مسعود –رضي الله عنه– ومنهم من قال: «إن الرحمة تقتضي عدم الاختلاف» كالسبكي الذي تسامح في الاختلاف في الفروع، وإن كان الاتفاق فيه خيراً من الاختلاف، أما ابن حزم –رحمه الله– فقد ذمّ الاختلاف، ولم يجعل شيئاً منه رحمة، بل عدّه كلّه عذاباً، ومع ذلك ظهر الاختلاف منذ عصر الصحابة –رضي الله عنهم– واستمر إلى يومنا هذا، ولكن العلماء وضعوا له ضوابط، استنبطوها من القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، كالعدل، والإنصاف، والاجتهاد في الوصول إلى الحق والمجادلة بالحسنى، والموضوعية، والبعد عن الإفحاش في القول، أو السخرية من الطرف الآخر، والتجرد عن الهوى، وما إلى ذلك من الضوابط التي تحافظ على روح الأخوّة، وتلتزم التقوى، وتقلل من حجم الخسائر. والله سبحانه يعلمنا كيف نتعامل مع الذين نختلف فكرياً معهم من الناس، فيقول:

﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[3]، ﴿وقولوا للناس حسناً﴾[4]، بل ويقول سبحانه: ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله﴾[5].

والنورسي رجل قرآني ،ومنهجه – في سائر أحواله– هو المنهج الذي نصّ عليه القرآن، ولذلك نراه يتعامل مع مخالفيه في الرأي بموضوعية. لا يتعصب لرأي ولا ينحاز لفريق دون آخر فيما اختلف فيه الناس، كالموقف من الأولياء، وأصحاب الكرامات، والشخصيات التي تُكلّم فيها، كالشيخ محي الدين بن عربي وسواه،

---

(1) سورة هود آية ١١٨ – ١١٩.

(2) د. طه العلواني، أدب الاختلاف في الإسلام، ص ٣٠ – ٣١.

(3) سورة النحل: ١٢٥.

(4) سورة البقرة: ٨٣.

(5) سورة الجاثية: ١٤.

وكأصحاب الجذب من الصوفية.. يجادل هؤلاء باللين، وبالتي هي أحسن -غالباً- إلا إذا وجد شططاً أو خروجاً عن دين الله، فإنه يثور، ويحتدّ، ويشتدّ.

يقول الأستاذ النورسي حول الخلافات في القضايا الاجتهادية، فيما ليس فيه نصّ صريح:

«إن تسعين في المئة من أحكام الشريعة مسلَّمات وضروريات دينية، شبيهة بأعمدة من الألماس.

أما المسائل الاجتهادية الخلافية الفرعية، فلا تبلغ إلا عشرة في المئة. فلا ينبغي أن يكون تسعون عموداً من الألماس، تحت حماية عشرة منها من ذهب، ولا تابعة لها.

إن معدن أعمدة الألماس وكنزها: الكتاب والسنة، فهي ملكهما، ولا تُطلب إلا منهما.

أما الكتب الأخرى، والاجتهادات، فينبغي أن تكون مرايا عاكسة للقرآن، أو مناظير إليه ليس إلا، إذ إن تلك الشمس المنيرة المعجزة، لا ترضى لها ظلاً ولا وكيلاً»[1]. فعوامل الاتفاق تسعة أضعاف عوامل الاختلاف، وهي جديرة بأن تجمع المسلمين ولا تفرقهم، ولا ينبغي لها إلا أن تكون كذلك.

ونستطيع تلخيص منهجه الذي التزمه طوال حياته، تجاه مخالفيه في الرأي، بالنقاط التالية:

١ - لا يذكر أسماء الأشخاص والهيئات التي ينتقدها، أو يردّ عليها وعلى ما أثارته من شبهات حول الإسلام.

٢ - لا يشرح الشبهة، ولا يبسط المسألة التي سيردّ عليها، حتى لا يشوّش العقول، ويعكّر القلوب، بل يكتفي بالردّ عليها، ودحضها بالأدلة والبراهين.

٣ - يستخدم أسلوب الاستثناء في الردّ. مثلاً عندما يهاجم الأستاذ أوروبا وحضارتها، لا يهاجمها ككل، بل يستثني منها الطيب النافع، ويشدّد هجومه على القسم الفاسد منها، وكذلك الأمر في موقفه من القومية، عندما هاجم النوع السلبيّ منها، واستثنى الجانب الإيجابي.

٤ - الحذر فيما يكتب ويردّ، حتى لا يقع هو ورسائله وتلاميذه فرائس سهلة في أيدي المتربصين به وبدعوته.

---

[1] الكلمات، ص ٨٤٦.

٥ – اللين مع العلماء ومشايخ الصوفية، والشدّة والحدّة مع الملاحدة من علمانيين وقوميين وبلاشفة ودعاة التغريب.

٦ – وضع أسساً وقواعد للبحث العلمي، والتزمها في مباحثه وردوده، ودعا الآخرين إلى الالتزام بها، ليقلل من تشعب الخلافات، وهي:

أ – أن يسبر الباحث غور الموضوع.

ب – أن يتجرد من المؤثرات الزمانية.

جـ – أن يغوص إلى أعماق الماضي، للحصول على تجارب الآخرين.

د – أن يزن الأمور بموازين منطقية بحتة، دون تدخل العواطف.

هـ – أن يفتش عن منبع ومصدر كل شيء في بحثه.

وفيما يلي بعض القضايا التي تتضارب حولها الآراء، واختلف فيها النورسي مع الآخرين:

١ - **التصوف:**

كان الإمام النورسي من أزهد الناس في عصره، بل إن الذين كانوا في مثل زهده قلائل «ولكنه لم يكن صوفياً، ولا صاحب طريقة صوفية مطلقاً. لذا فليست رسائل النور رسائل صوفية، ولا طلابها من الصوفيين . إذ كان الأستاذ يقول دائماً: ليس هذا العصر بعصر تصوف وطريقة، إنما هو عصر إنقاذ الإيمان..»[1]. ويقول:

«إني أخال أن لو كان الشيخ عبد القادر الكيلاني، والنقشبندي والإمام الرباني، وأمثالهم من أقطاب الإيمان– رضوان الله عليهم أجمعين– أجل.. لو كان هؤلاء في عصرنا هذا، لبذلوا كل ما في وسعهم لتقوية الحقائق الإيمانية، والعقائد الإسلامية، لأن منشأ السعادة الأبوية فيهما، وإن أي تقصير–مهما كان– فيهما، يعني الشقاء الأبدي»[2].

لماذا؟ لأن «قبول أقوال الأشخاص العظام لا يفيد اليقين ولا القطعية– في علم المنطق– بغير دليل، بل ربما تكون قضية مقبولة يقتنع بها الإنسان بالظن الغالب. أما البرهان الحقيقي –كما هو في المنطق– فلا ينظر إلى مكانة الشخص القائل، وإنما إلى الدليل الذي لا يُجرح.

---

(١) الصالحي، ص ٢٠٢.

(٢) المكتوبات، ص ٢٠

فجميع رسائل النور من هذا القسم، أي من البرهان اليقيني. وإن ما يراه أهل الولاية الصوفية من الحقائق في العمل والعبادة والسلوك والرياضة الروحية، وما يشاهدونه من الحقائق الإيمانية وراء الحجب، فرسائل النور أيضاً مثلهم، غير أنها في موضع العلم شقّت طريقاً إلى الحقيقة من خلال العلم، وفي موضع السلوك والأوراد فتحت سبيلاً إلى حقيقة الحقائق، ضمن براهين منطقية، وحجج عقلية.. لذا فقد انتصرت على الضلالات الفلسفية المعاصرة، وتغلّبت عليها، في حين أن تيار (الحقيقة) و (الطريقة) قد تراجع أمامها»[1].

إنه يردّ ويقارن ويبيّن الفرق بين نهج مدرسة النور، ونهج المتصوفة، في هدوء، وعقلانية، ومنطق، ولكننا نراه في موقف آخر، يثور بأصحاب البدع، ويعدّهم من جملة العاملين على هدم صروح هذا الدين. اسمعه يصرخ بهم:

«يا علماء السوء البائسين الذين يصدق عليهم اسم (الصادق الأحمق)

ويا أيها الصوفيون الجهلاء المجذوبون الفاقدون للعقل:

إن شجرة طوبى الإسلام قد ترسّخت عروقها في صلب الكون وحقيقته، وبثّت جذورها في ثنايا حقائق الكون كلّه، فهذه الشّجرة العظيمة لا يمكن غرسها في تراب العنصرية الموهومة المؤقّتة الجزئيّة الخصوصيّة السلبيّة، بل التي لا أساس لها أصلاً، وهي المشحونة بالأغراض الظالمة المظلمة، وإن السعي لغرسها هناك، محاولة بدعية هدّامة رعناء»[2].

وحُقَّ للنورسي أن يخاطبهم بهذه اللهجة العالية، حتى يعودوا إلى رشدهم الذي فقدوه بسيرهم في ركاب القوميين المنحرفين، بحجة أنهم يغرسون الدين في مزرعة القومية، وهم كاذبون في هذا، سادرون في غيّ القوميين العلمانيين أعداء هذا الدين. والملاحظ أنه لم يذكر اسماً بعينه من أولئك العلماء الضالين، والمشايخ الغاوين.

٢ - قضية الاجتهاد:

هذه القضيّة الاجتهادية أثارت -وما تزال تثير- جدلاً شديداً حولها، من مُغْلق لباب الاجتهاد، رافض تحت أي ذريعة أن يفتحه، وبين داع إلى فتح مغاليق تلك الأبواب، فالذين اجتهدوا رجال، و(نحن) رجال، الأئمة: أبو حنيفة، ومالك،

---

(١) الصالحي، ص ٢٠٤، نقلاً عن ملحق أمير داغ: ص٩٠.

(٢) المكتوبات، ص ٥٦٥ - ٥٦٦

والشافعي، وأحمد، والأوزاعي، والثوري، وابن عيينة، وسواهم من الأئمة المجتهدين (رجال)، ودعاة فتح باب الاجتهاد على مصراعيه (رجال) وإن كان كثير منهم لا يقيم عبارة.. وقد أدلى الأستاذ النورسي بدلوه في هذه القضية المهمّة، وناقشها بعقلانية ووعي للواقع المعيش فقال، دون أن يذكر آراء الآخرين، أو يشرح وجهات نظرهم:

«إن باب الاجتهاد مفتوح، إلا أن هناك ستة موانع في هذا الزمان تحول دون الدخول فيه:

١ – حتى لا نمهّد للمتسلّلين والمخرّبين باسم الاجتهاد، ولاسيّما في زمن المنكرات، ووقت هجوم العادات الأجنبية، واستيلائها، وأثناء كثرة البدع، وتزاحم الضلالات، ودمارها.

٢ – إن الجوانب النظرية للإسلام قد استغنت بأفكار السلف الصالح، وتوسّعت باجتهاداتهم الخالصة، حتى لم تعد تضيق بالعصور جميعاً، فالانصراف عنها إلى اجتهادات جديدة اتباعاً للهوى، هو خيانة مبتدعة.

٣ – العالم الذكيّ في العصر الحاضر: قد غرق فكره في مستنقع الفلسفة المادية، وسرح عقله في أحداث السياسة، وصار قلبه أمام متطلّبات الحياة المعيشية، وابتعدت استعداداته عن الاجتهاد. وبهذا ابتعد عن القدرة على الاجتهادات الشرعية، بمقدار تفننه في العلوم الأرضية الحاضرة، وقصّر عن نيل درجة الاجتهاد، بمقدار تبحّره في العلوم الأرضية.

٤ – تطلُّعُ الذين استحبّوا الحياة الدنيا إلى الاجتهاد، وتلوّثوا بالفلسفة المادية: وسيلةٌ إلى تخريب الوجود الإسلامي.

٥ – هناك ثلاث نقاط تدعو إلى التأمل والنظر، تجعل اجتهادات هذا العصر أرضية، وتسلب منها روحها السماوي، بينما الشريعة سماوية، والاجتهادات بدورها سماوية، لإظهارها خفايا أحكامها:

أولاً: إنّ (علّة) كل حكم تختلف عن (حكمته) فالحكمة والمصلحة سبب الترجيح، وليست مناط الوجود، ولا مدار الإيجاد، بينما (العلة) هي مدار وجود الحكم.

(وضرب مثلاً بقصر الصلاة في السفر).

«تُقصر الصلاة في السفر، فتُصلى ركعتان، فعلّة هذه الرخصة الشرعية: السفر. أما حكمتها: فهي المشقّة، فإذا وُجد السفر ولم تكن هناك مشقة، فالصلاة تُقصر، لأن العلة قائمة، وهي السفر. في حين إن لم يكن هناك سفر، وكانت هناك أضعاف المشقة، فلن تكون تلك المشقات علّة القصر.

وخلافاً لهذه الحقيقة، يتوجّه نظر الاجتهاد في هذا العصر إلى إقامة المصلحة، والحكمة، بدل العلة، وفي ضوئها يصدر حكمه. فلا شك أن اجتهاداً كهذا أرضيّ وليس بسماويّ.

ثانياً: إن نظر هذا العصر متوجه أولاً وبالذات إلى تأمين سعادة الدنيا، وتوجّه الأحكام نحوها، والحال أن قصد الشريعة متوجّه أولاً وبالذات إلى سعادة الآخرة، وينظر إلى سعادة الدنيا بالدرجة الثانية.

ثالثاً: إن القاعدة الشرعية (الضرورات تبيح المحظورات) ليست كليّة، لأنّ الضرورة إن كانت ناشئة عن طريق الحرام، لاتكون سبباً لإباحة الحرام.

وحيث إن أهل اجتهاد هذا الزمان قد جعلوا تلك الضرورات مداراً للأحكام الشرعية، لذا أصبحت اجتهاداتهم أرضية، وتابعة للهوى، ومشوبة بالفلسفة المادية، فهي إذن ليست سماوية، ولا تصح تسميتها اجتهادات شرعية قطعاً.

٦ – قرب عهد المجتهدين الأوائل من عصر الحقيقة والنور، يسّر لهم أن يأخذوا النور الصافي من أقرب مصادره، فتمكنوا من القيام باجتهاداتهم الخالصة، في حين أن مجتهدي العصر الحديث ينظرون إلى كتاب الحقيقة من مسافة بعيدة جداً، حتى ليصعب عليهم أن يروا أوضح حرف فيه.

والخلاصة: «أما جزئيات الأحكام غير المنصوص عليها، التي تقتضي التبديل تبعاً للظروف، فإن اجتهادات فقهاء المذاهب كفيلة بمعالجة التبديل.»

«تعددت المذاهب لعجز البشرية عن الوصول إلى مستوى واحد في حياتها الاجتماعية»[1].

---

[1] الكلمات، ص ٥٦٢ – ٥٦٩ باختصار.

ثم يقول أخيراً:

«كل من لديه استعداد وقابلية على الاجتهاد، وحائز على شروطه، له أن يجتهد لنفسه، في غير ماورد فيه النص، من دون أن يلزم الآخرين به، إذ لا يستطيع أن يشرّع ويدعو الأمة إلى مفهومه، إذ فهمه يُعدُّ من فقه الشريعة، ولكنه ليس الشريعة نفسها.

لذا.. ربما يكون الإنسان مجتهداً، ولكن لايمكن أن يكون مشرّعاً. فالدعوة إلى أي فكر كان، مشروط بقبول جمهور العلماء له، وإلا، فهو بدعة مردودة، تنحصر بصاحبها ولا تتعدّاه، لأن الإجماع، وجمهور الفقهاء، هم الذين يميزون ختم الشريعة عليه»[1].

إنه يناقش القضية مناقشة علمية هادئة، منطلقة من واقع حال علماء المسلمين في عصره، لا يحجر على أحد، ولا يغلق ما حقّه الفتح، ولا يفتح ما حقُّه الغلق.. درس المسألة من جميع جوانبها، وسبر أغوارها، حسب قواعد البحث العلمي الذي ارتآه، دون أن يبسط آراء الآخرين القائلين بفتح باب الاجتهاد دون قيود وشروط. إنه عالم رباني، عرف زمانه، واستقامت طريقته.

٣ - العلماء والوعّاظ.

لم يَغفل الأستاذ النورسي عن واقع العلماء والوعّاظ الذين يتصدّون لتعليم الناس وإرشادهم، ووعظهم، بل شرح واقعهم، وشخّص أمراضهم، ووصف لهم العلاج الناجع، ليؤدّوا مهمّتهم على خير وجه، من غير تسمية واحد منهم، أو تجريح هيئة علمية معيّنة، فقال:

«لقد استمعت إلى الوعاظ، فلم تؤثّر فيّ نصائحهم ووعظهم، فتأملت في السبب، فوجدت أن هناك ثلاثة أسباب، علاوة على قسوة قلبي:

الأول: أنهم يتناسون الفرق بين الحاضر والماضي، فيبالغون كثيراً في تصوير دعاواهم، محاولين تزويقها، دون إيراد الأدلة الكافية التي لابدّ منها للتأثير وإقناع الباحث عن الحقيقة. فالزمن الحاضر أحوجُ إلى إيراد الأدلة.

---

[1] المصدر نفسه، ص ٨٤٨.

الثاني: أنّهم عند ترغيبهم في أمر ما، وترهيبهم منه، يُسقطون قيمة ما هو أهمّ منه، فيفقدون -بذلك- المحافظة على الموازنة الدقيقة التي هي في الشريعة، (أي بين المهمّ والأهم).

الثالث: إن مطابقة الكلام لمقتضى الحال، هي أرقى أنواع البلاغة، فلا بدّ أن يكون الكلام موافقاً لحاجات العصر. إلا أنهم لا يتكلمون بما يناسب تشخيص العلة لهذا العصر، وكأنهم يجرّون الناس إلى الزمان الغابر، فيحدّثونهم بلسان ذلك الزمن».

ثم يأتي توجيهه لهم، وإرشاده إياهم إلى الأسلوب الأمثل فيقول:

«فعلى الوعّاظ والمرشدين المحترمين أن يكونوا محقّقين، كي يتمكّنوا من الإثبات والإقناع، وأن يكونوا أيضاً حكماء مدقّقين، كي لا يفسدوا توازن الشريعة، وأن يكونوا بلغاء مقنعين، كي يوافق كلامهم حاجات العصر، وعليهم أن يزنوا الأمور بموازين الشريعة»[1].

كلام مقنع، يرضاه حتى العلماء الموجَّه إليهم هذا النقد، بأن كلاً منهم يستطيع أن يزعم أنه موجَّه لغيره، ثمّ لأنه نقد موضوعي قائم على وعي ودراسة ودراية لواقع الحال.

وتعيد رسائل النور وتكرر الدعوة إلى الوفاق والتصالح بين المدارس المختلفة، يقول الأستاذ النورسي: «ولقد قلت مئة مرة، وأعيدها أيضاً: إنه لا بدّ من الوفاق والتصالح بين أهل المدارس الفقهية، والمدارس الحديثة، والزوايا الصوفية، لأجل وحدة الهدف، وذلك بتبادل الأفكار، وميل بعضها إلى بعض، ذلك أننا نرى -مع الأسف- أن تباين أفكارهم، كما أنها تفرّق الصفّ، فإنها توقف الرقيّ والتقدم كذلك»[2].

وهكذا تبيّن لنا منهجه العلمي المنطقي القائم على دراسة واقع الحال للمخالفين له في الفكر، من المحسوبين على الإسلام، ومن بعض القضايا الإسلامية، وهو لا يعوّل فيه على بسط آرائهم ونظرياتهم، إلا من خلال مناقشتها، ودحض المخطىء منها، في لين حيناً، وفي حدّة حيناً آخر، حسب مقتضى الحال.

---

(1) المحكمة العسكرية العرفية، ص ٦٩.

(2) المناظرات، ص ٨٢.

٤ - موقفه من الأطروحات العلمانية:

العلمانية بضاعة غربية، وربما يهوديّة، صدّرها من صدّرها إلينا، واستوردها المستغربون الذين كانوا يحجّون بعقولهم وقلوبهم ومشاعرهم وأحاسيسهم وعواطفهم نحو أوروبا، استوردوها -على علاّتها- من هناك، وحاولوا تطبيقها على المجتمع المسلم في تركيا، كما شاء لهم أساتذتهم وشاء لهم الهوى، فباسمها اضطهدوا المسلمين، وقهروهم وأرغموهم على تنفيذ ما ترشّح عنها من قرارات جائرة كافرة، ومن سلوكيات فاسقة، ومن ظلم وسجن وقتل وتشريد.

وكانت جمعية (تركيا الفتاة) ووصيفتها جمعية (الاتحاد والترقي) من أوائل من تبنّى العلمانية في بلاد المسلمين عامة، وفي تركيا خاصة، وحاول أعضاؤها الذين كانوا يتلقون التعليمات والأوامر من المحافل الماسونية في سلانيك، ومن خارج الحدود -حاولوا ثم عملوا على عزل الدين عن الحياة.. عن الدولة ودوائرها، وعن التعليم في مراحله المختلفة. وقد تصدّى لهم النورسي الذي ما كان يأوي إلا إلى ركن الله الشديد، وبيّن لهم خطأهم هذا في كثير من كلماته ومرافعاته وخطبه، وكلما أتيحت له فرصة الحديث، للتشنيع عليهم. ومنها قوله:

«إن خطأ (تركيا الفتاة) نابع من عدم معرفتهم أن الدين أساس الحياة، فظنّوا أن الأمة شيء، والإسلام شيء آخر، وهما متمايزان، ذلك لأنّ المدنيّة الحاضرة أوحت بذلك، واستولت على الأفكار بقولها: إن السعادة في الحياة نفسها، إلا أن الزمان أظهر الآن أن نظام المدنية فاسد ومضرّ. (أي المدنية الظالمة الملحدة التي تعاني السكرات)، وأن التجارب القاطعة أظهرت أن الدين حياة للحياة، ونورها وأساسها.. إحياء الدين إحياء لهذه الأمة، والإسلام هو الذي أدرك هذا..

إن رقيّ أمتنا هو بمقدار تمسّكها بالدين، وتدنّيها وسقوطها بمقدار إهمالها له، بخلاف الدين الآخر.. هذه حقيقة تاريخية قد تُنوسيت»[1].

ونلاحظ هنا أن الأستاذ ذكر جمعية تركيا الفتاة بالاسم، مع أنه -في أكثر رسائله- يتجنّب ذكر الهيئات والشخصيات بالاسم، ولكن الذي يقرأ ما يكتبه أو يلقيه، يستطيع معرفة المراد من كلامه.. وهو بهذا الأسلوب الحصيف الذي ألزم به

---

[1] الكلمات، ص ٨٦١.

نفسه وطلاب النور، استطاع النجاة -بفضل الله- من أولئك الحكام الذين حرّموا على الناس نقد العلمانية.

في شهر تشرين الأول عام ١٩٢٦م وافق البرلمان التركي على مجموعة من القوانين المنافية للإسلام ، المناوئة لتعاليمه وأحكامه، هي:

١ - تحريم تعدد الزوجات.

٢ - إلغاء المهر، وعدم فرضه على الزوج.

٣ - إلغاء حقّ الزوج في الطلاق.

٤ - حرية زواج المسلمة التركية من نصراني أو يهودي، دون التقيد بشرط الإسلام.

٥ - التسوية بين الذكر والأنثى في الميراث.

٦ - إلغاء نظام الإرث بالتعصيب، والإرث بالقرابة البعيدة.

٧ - وضع حدّ لسنّ الزواج.

٨ - إلغاء نظام فصل النساء عن الرجال في الحافلات والقطارات والسفن والمراكب ودور السينما[1].

وبناء على هذه القرارات التي تبيّن توجّهات رجال الحكم الجمهوري العلماني، وبعد إلغاء المحاكم الشرعية، وقانون الشريعة الإسلامية، وإقرار العمل بالقانون المدني السويسري - دبّت الفوضى في المجتمع التركي الذي أصبح ساحة مفتوحة أمام الغزو الفكري الأوربي، فانتشرت العادات الأوربية في ذلك المجتمع المهزوم، وصارت بديلاً للعادات والأخلاق الإسلامية، نذكر منها:

- انتشار الفسق والفجور على نطاق واسع، وكان للصحافة السياسية والأدبية دورها الكبير في الترويج لها.
- الاحتفال بالأعياد الغربية، كعيد رأس السنة الميلادية وسواه.
- دخول العادات الغربية بمناسبات الفرح والعزاء، كالموسيقى، والرقص، والخمور، والاختلاط، والتبرّج، والسّفور.
- انتشار أماكن بيع الخمور، والدعاية لها.

---

(١) د. فرج محمد الوصيف، بديع الزمان سعيد النورسي، ص ٣٦، نقلاً عن جهان أقطاش، اللبس والحكومة منذ التنظيمات إلى اليوم، ص ١٧٨.

- انتشار أندية القمار، والدعاية لها.
- انتشار البنوك الربوية بشكل عجيب، في كلّ المدن والبلدات وكثير من القرى.

وصدرت قرارات بلبس القبعة، بدلاً من العمامة، وبإيفاد البنات إلى أوربا بدون محارم، باسم العلم، وصدر قرار بنفي البنات الأبكار إلى خارج الحدود التركية، لإرغامهن على العهر، وقرار بتفكيك الأسرة، واعتبار الأولاد مسؤولين عن أنفسهم في سنّ معينة، الأمر الذي تسبّب في تسيّب أخلاقي فظيع، كما عمل على عقوق الوالدين، إلى جانب القرار الذي يلزم النساء بالسفور والاختلاط، وبقصر الوظائف على المعادين للدين، وإلغاء الحروف العربية، وتتريك الأذان والقرآن الكريم، إلى آخر ما هنالك من موبقات الحكومة الكمالية.. كل هذه الأوضاع المحزنة في تركيا، عاصرها بديع الزمان، فاعتصر لها قلبه ألماً وحزناً، وكانت محرّكاً قوياً له في دعوته»[1]. وسوف نطالع مواقفه الشجاعة والعلمية على الأطروحات العلمانية التي كانت تعجّ بها الصحافة والأندية والمحافل والشوارع والأماكن العامة، وكان يتولى كِبْرها الحاكمون بأمر سادتهم من يهود ونصارى ومستغربين وقوميين وعلمانيين وبلاشفة.

٥ - التغريب:

بدأت حركة التغريب منذ عهد التنظيمات (١٢٥٥هـ/١٨٣٩م)، ووصلت إلى أبعد أمدائها في عهد الكماليين، ونستطيع أن نحصي بعض أسباب نشوئها وتطورها بالتالي:

أ. المبتعثون إلى أوربا من أجل الدراسة وسواها.

ب. المؤسسة العلمية لوضع الخطط والمناهج التي أسست عام ١٨٥١م.

جـ. مكتب الترجمة (١٨٣٢م) الذي اعتمد على أبناء الأقليات، ثم تحوّل إلى مدرسة فكرية ترمي إلى نشر الفكر الغربي.

د. الغربيون المستقدمون للعمل في المدارس والكليات العسكرية.

هـ. موظفو السفارات المبتعثون إلى أوربا.

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٩ - ٤١.

و. الجمعيات الفرنسية في كل من فرنسا واستانبول.
ز. المؤسسات التعليمية الأجنبية في استانبول[1].

وكان من مظاهر التغريب -إضافة إلى ما تقدم- في عهد الكماليين:
أ - الطعن بالإسلام ونبيّه المصطفىﷺ.
ب - النيل من علماء الدين.
جـ - الدعوة إلى تغريب ما بقي من العبادات والأوامر الإلهية، كالدعوة إلى أن تصاحب الموسيقى ما في الصلوات من قراءة وأدعية، لإضفاء أجواء (روحانية) على تلك الطقوس (زعموا) وكوضع الكراسي والمنصات في المساجد.
د - تطويع الأدب ليكون أداة لنشر الأفكار الإلحادية، والجنس والعهر، فيما يسمّى الأدب المكشوف.
هـ - تغريب التعليم، وإلغاء التعليم الديني.
و - استبدال النعرة القومية بالدين.
ز - زيادة نشاط الاستشراق[2].

هذا النشاط المحموم لحركة التغريب أذهلت كثيرين، وأحبطت كثيرين، وساقت في ركابها عدداً من المهزومين من الداخل، من علماء الدين وأشباههم، ولكنه كان محرّضاً للإمام النورسي، ودافعاً إياه من أجل التصدّي لهؤلاء، والردّ عليهم بمنطقية وعقلانية، وعِلْم الدارس للحضارة الغربية، وفلسفتها القديمة والحديثة، ولدينها النصراني، ولتوجّهاتها الاستعمارية، ومنطلقاتها وتطلعاتها المادية.. وقد فنّد كلّ ذلك بعشرات المقالات والمباحث الباهرة التي كان يقارن فيها بين المدنيّة الغربية المادية، والمدنيّة الإسلامية التي تسدّ حاجات الإنسان المادية، وترضي أشواقه الروحية.

يقول الأستاذ في (المَثْنَويّ العربيّ النّوريّ) لأولئك الأتراك المسلمين المستغربين «إن ظهور أكثر الأنبياء في الشرق، وأكثر الفلاسفة في الغرب، رمز للقدر الإلهي بأن الذي يستنهض الشرق ويقوّمه إنما هو الدين والقلب، وليس العقل والفلسفة»[3].

---

(1) المصدر نفسه باختصار، ص ٤٢ - ٤٤.
(2) المصدر نفسه باختصار، ص ٤٧ - ٥٣.
(3) المثنوي، ص ١٩٧.

ويهاجم ذلك التيّار البدعي المترشّح من الجانب الخبيث للحضارة الأوربيّة، ويبشّر باضمحلال ذلك التيّار الذي سوف تسفيه الرياح، وينبّههم إلى أنّه «ليس بالإمكان القيام بعمل إيجابي بناء، مع التهاون في الدين»، ويلفت انتباههم إلى أن العالم الإسلامي بُعدٌ استراتيجي مهم، وأن المسلمين الصادقين هم الذين يحبون الأتراك المسلمين، ويفرحون لانتصاراتهم على اليونان، وإذا عرف العالم الإسلامي بُعدكم عن الدين، فسوف ينصرفون عنكم، وعدم تمسككم بالدين يؤدي إلى العصيان والانشقاق، وإن الأعداء يحاولون تدمير شعائر الإسلام، مما يستوجب عليكم إحياءها، والمحافظة عليها، وإلا، فسوف تعينون -بغير شعور منكم- العدوّ المتحفّز للانقضاض عليكم.

وأوضح لهم أن التهاون في تطبيق الشعائر الدينية، يفضي إلى ضعف الأمة، والضعف يغري العدوّ ويشجعه عليهم[1].

ويعرّي المدنية الغربية، وهو يقارن بينها وبين المدنية الإسلامية فيقول: «إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها:

- **فنقطة استنادها:** القوة بدل الحقّ. وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض. ومن هذا تنشأ الخيانة.
- **هدفها وقصدها:** منفعة خسيسة بدل الفضيلة. وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم. ومن هذا تنشأ الجناية.
- **دستورها في الحياة:** الجدال والخصام بدل التعاون. وشأن الخصام: التنازع والتدافع. ومن هذا تنشأ السفالة.
- **رابطتها الأساس بين الناس:** العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوّى بابتلاع الآخرين. وشأن القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد. ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك.
- **وخامستها:** هي أن **خدمتها الجذابة**، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، واتباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائماً: مسخ الإنسان وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية، وتمسخ مسخاً معنوياً.

---

[1] المصدر نفسه، ص ١٩٨ - ٢٠٠

إن معظم هؤلاء المدنيين، لو قلبتَ باطنهم على ظاهرهم، لرأيت في صورتهم سيرة القرد والثعلب والثعبان والدب والخنزير.

نعم.. إن خيالك ليمس فراء تلك الحيوانات وجلودها.. وآثارهم تدل عليهم»[1].

أما أسس المدنية الإسلامية، فيقول عنها: «إنه لا ميزان في الأرض غير ميزان الشريعة.. إنها رحمة مهداة، نزلت من سماء القرآن العظيم».

أما أسس مدنية القرآن الكريم، فهي إيجابية، تدور سعادتها على خمس أسس إيجابية:

* **نقطة استنادها:** الحقّ بدل القوة. ومن شأن الحقّ دائماً: العدالة والتوازن. ومن هذا ينشأ السلام، ويزول الشقاء.
* **وهدفها:** الفضيلة بدل المنفعة. وشأن الفضيلة: المحبة والتقارب. ومن هذا تنشأ السعادة، وتزول العداوة.
* **دستورها في الحياة:** التعاون بدل الخصام والقتال. وشأن هذا الدستور: الاتحاد والتساند اللذان تحيا بهما الجماعات.
* **وخدمتها للمجتمع:** بالهدى بدل الأهواء والنوازع. وشأن الهدى: الارتقاء بالإنسان ورفاهه إلى ما يليق به، مع تنوير الروح، ومدها بما يلزم.
* **رابطتها بين المجموعات البشرية:** رابطة الدين والانتساب الوطني، وعلاقة الصنف والمهنة وأخوة الإيمان. وشأن هذه الرابطة: أخوّة خالصة، وطرد العنصرية والقوميّة السلبيّة.

وبهذه المدنية يعم السلام الشامل، إذ هو في موقف الدفاع ضدّ أي عدوان خارجي»[2]. ثم يتساءل: لماذا أعرض المسلمون عن المدنية الغربية؟ ويجيب: «لأنها لا تنفعهم، بل تضرّهم.

لأنّها كبّلتهم بالأغلال. بل صارت سُمّاً زُعافاً للإنسانيّة، بدلاً من أن تكون لها ترياقاً شافياً، إذ ألقت ثمانين بالمئة من البشرية في شقاء، لتعيش عشرة في المئة منها في سعادة زائفة. أما العشرة الباقية، فهم حيارى بين هؤلاء وهؤلاء.

---

(1) الكلمات، ص ٨٥٥.

(2) المصدر نفسه، ص ٨٥٦.

وتتجمع الأرباح التجارية في أيدي أقليّة ظالمة، بينما السعادة الحقّة، هي في إسعاد الجميع، أو في الأقل، أن تصبح مبعث نجاة الأكثرية.

والقرآن الكريم النازل رحمة للعالمين، لايقبل إلا طرازاً من المدنية التي تمنح السعادة للجميع أو للأكثريّة، بينما المدنيّة الحاضرة، قد أطلقت الأهواء والنوازع من عقالها، فالهوى حرٌّ طليق طلاقة البهائم، بل أصبح يستبدّ، والشّهوة تتحكّم، حتى جعلت الحاجات غير الضروريّة في حكم الضروريّة. وهكذا مُحيت راحة البشريّة، إذ كان الإنسان في البداوة محتاجاً إلى أشياء أربعة، بينما أفقرته المدنية الحاضرة الآن، وجعلته في حاجة إلى مئة حاجة وحاجة، حتى لم يعد السعي الحلال كافياً لسدّ النفقات، فدفعت المدنيّة البشرية إلى ممارسة الخداع، والانغماس في الحرام. ومن هنا فسدت أسس الأخلاق، إذ أحاطت المجتمع والبشريّة بهالة من الهيبة، ووضعت في يدها ثروة النّاس فأصبح الفرد فقيراً وفاقداً للأخلاق.

والشاهد على هذا كثير، حتى إن مجموع ما ارتكبته البشرية من مظالم وجرائم وخيانات في القرون الأولى، قاءتها واستفرغتها هذه المدنيّة الخبيثة مرّة واحدة، وسوف تصاب بالمزيد من الغثيان في قابل أيامها»[1].

لقد قاءت في حربين عالميتين حتى لطخت بالدّم البرّ والبحر والهواء.

وإذا كان في المدنيّة الغربيّة محاسن، فهي «ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم، وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها، وحثّ الشرائع –ولا سيّما الشريعة المحمديّة– وحاجة الفطرة البشريّة.

فهي بضاعة نشأت من الانقلاب الذي أحدثه الإسلام، لذا، لايتملّكها أحد من النّاس»[2].

ثم يبيّن أن الإسلام يستعصي على الحضارة الغربية: «إن النور الإلهي في الشريعة الغرّاء، يمنحها خاصة مميزة، وهي الاستقلال الذي يؤدي إلى الاستغناء.

«هذه الخاصية لاتسمح أن يتحكم في ذلك النور دهاء روما الممثل لروح هذه المدنية، ولا يطعّم بها، ولا يمتزج معها. ولن تكون الشريعة تابعة لذلك الدهاء»[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص ٨٥٦ – ٨٥٧.

(2) المصدر نفسه، ص ٨٥٩.

(3) المصدر نفسه، ص ٨٥٧.

فالنورسي «يرفض الأسس الثقافية في الحضارة الغربية، بدءاً من عصر اليونان إلى اليوم. ويحاول في رسائله كلها قطع جذور الثقافة الغربية وتأثيرها في الثقافة الإسلامية المعاصرة؛ لأنها انطلقت من مبادىء الفلسفات الجاحدة التي أوجدت حالة من القلق والفوضى الفكرية، والتشكيك والإلحاد في العالم الإسلامي، مستغلة تأخر المسلمين، وجهلهم بدينهم»[1].

ولكن موقفه هذا ليس موقف الرافض لكل ما يأتي من الغرب، فهو – مثلاً – يميّز بين نوعين من الفلسفة الغربية.. الفلسفة الجاحدة التي ترفض الوحي الإلهي، وتنادي بالإلحاد، وهي فلسفة مادية كافرة مرفوضة. وبين الفلسفة المؤمنة الخادمة للدين التي تخدم الحياة الاجتماعية، وتعمق الأخلاق والمثل الإنسانية، وتمّهد للرقي الصناعي، فهي في وفاق ومصالحة مع القرآن، بل هي خادمة لحكمة القرآن، فلا تعارضها، ولا يمكنها ذلك.

وكذلك موقفه من الجوانب العلمية من الحضارة الغربية، هو موقف المسلم الذي فرض عليه الإسلام أن يتحرك لاكتشاف قوانين الحياة، والاستفادة منها، لإقامة الحضارة، وبناء التقدم. ولذلك دعا المسلمين إلى الأخذ بأسباب الحضارة الصناعية، وإلى تبنّي التكنولوجيا الحديثة[2] وتبنّي العلوم الكونية الحديثة. قال الأستاذ رحمه الله: «ضياء القلب هو العلوم الدينية. ونور العقل هو الفنون المدنية – أي العلوم الكونيّة الحديثة – وبامتزاجهما تتجلى الحقيقة، وبافتراقهما تتولد الحيل والشبهات في هذا، والتعصب الذميم في ذاك»[3].

فإذا كان دعاة الاستغراب يريدون القضاء على العلوم الدينية، بزعم أنها رجعية متخلّفة..

وإذا كان بعض علماء الشريعة، وعامة الناس، يرون في العلوم الحديثة كفراً بواحاً يجب أن يبعدوا أبناءهم عنها في المدارس الحديثة.

فإن كان وسطاً بين هؤلاء وأولئك، يريد إقامة الجسور، لاهدم ما هو قائم منها. إنه من المدرسة الوسطية المعتدلة التي عرفت زمانها، واستقامت طريقتها، وراحت

---

(1) د. محسن عبد الحميد، النورسي، ص ٧١ – ٧٢.

(2) المصدر نفسه، ص ٧٢.

(3) المثنوي، العربي النوري، ص ١٤.

تفتش عن ضالّتها، فنادى بالمزج بين هاتين، وطالب عامة الناس بأن يرسلوا أولادهم إلى المدارس الحديثة، فالعلوم الكونية ليست كافرة، بل هي تهدي إلى الله، وقد يكون مدرّسوها هم الكافرين والزنادقة.

وأخيراً نختم حديثنا عن موقفه من التغريب والحضارة الغربية والغرب بهذه المقولة الرائعة التي جاءت في خطبته الشامية سنة ١٩١١م:

«إن أمريكا وأوروبا حاملتان بالإسلام، فكما أن الإمبراطورية العثمانية كانت حاملة بأوربا فولدتْ، فلا بدّ أن يولد من أوروبا دولة للإسلام»[1] وليس بمستغرب أن يغزو الغربُ الشرق بالإسلام، في قابل الأيام.

٦ - القومية:

والقومية بأنواعها، الطورانية، والعربية، والسورية، والفرعونية، وسواها من القوميات الضيّقة، من نتاج الفكر الغربي التي استوردها دعاة التغريب والعلمانيون إلى بلاد المسلمين، مع أنها بضاعة كاسدة فات أوانها، وتخلّت عنها أوروبا منذ حين، ثمّ صدّرتها إلينا.

ودعاة القومية هم هم في طروحاتهم، بل العجب أن ترى رائد الدعوة إلى القومية العربية (ساطع الحصري) كان من أوائل من نادى بالقومية الطورانية في الأستانة، وحاول التنظير لها، وتأسيس مبادئها ومقوماتها وعناصرها، ثم جيء به إلى العراق وسورية ومصر، ليؤلّف العديد من الكتب التي تشرح نظرية القومية العربية.

وقد تنبّه بعض العلماء والمفكرين والسياسيين إلى خطورة هذه الدعوة التي سوف تمزّق الأمة الإسلامية شرّ ممزق، بل سوف تمزّق الشعب الواحد في القطر الواحد. فدولة كتركيا فيها الأتراك وفيها الأكراد وفيها العرب، وفيها غيرهم، ومثل هذه الدعوة العنصرية كفيلة بخلق المشكلات، وزرع العداوات بين أبناء الشعب الواحد، إذ سوف ينهض من كل عرق من ينادي بقوميته، فهذا قومي كردي، وذاك قومي عربي و.. و..

وكانت حساسية الأستاذ النورسي مفرطة في هذا، لأنه كردي ويعرف ما سيفكّر به قومه والأقوام الأخرى، ولذلك تصدّى لهذه الدعوة الغريبة، وردّ على

---

[1] عبد الفتاح أبو غدة، العلماء العزّاب، ص ٢٤٤.

دعاتها في العديد من المقالات والكتابات والرسائل، وفنّد مزاعم العرقية، والدماء الصافية، والأصل الواحد، فالشعوب اختلط بعضها ببعضها الآخر، بسبب الهجرات، ولم يعد في إمكان أحد إثبات صفاء العرق الواحد في أي شعب من شعوب العالم، ناهيك عن تركيا التي كانت إلى عهد قريب مركز الخلافة الإسلامية، وحامية حمى الإسلام والمسلمين، وموئل أبناء الأمة الإسلامية وملجأهم، وهم ينتمون إلى شعوب شتى. يقول الأستاذ:

«نقول لأولئك الذين يغالون في العنصرية، وفي القومية السلبية:

أولاً: لقد حدثت هجرات كثيرة جداً في بقاع الأرض كلها، ولا سيما في بلادنا هذه، منذ سالف العصور، وتعرّضت أقوام كثيرة إلى تغيّرات وتبدّلات كثيرة، ازدادت تلك الهجرات إلى بلادنا، بعد أن أصبحت مركزاً للحكومة الإسلامية، حتى حامت سائر الأقوام كالفراش حولها، وألقت بنفسها فيها، واستوطنتها فلا يمكن والحال هذه تمييز العناصر الحقيقية بعضها عن بعض، إلا بانفتاح اللوح المحفوظ.

لذا.. فبناء المرء أعماله وحميته على العنصرية لا معنى له ألبتة، فضلاً عن أضرارها».

ثم يبيّن لدعاة القومية الطورانية، فائدتين من مئات الفوائد التي تكسبها الحمية الإسلامية:

الأولى: أن الذي حافظ على حياة الدولة الإسلامية وكيانها -رغم قلة عدد أفرادها- تجاه جميع دول أوروبا العظيمة، هو هذا المفهوم النابع من القرآن الذي يحمله جيشها:

«إذا متُّ فأنا شهيد، وإذا قَتَلْتُ فأنا مجاهد» هذا المفهوم دفع أبناء هذا الوطن إلى استقبال الموت باسمين، ممّا هزّ قلوب الأوروبيين وأرهبهم.

تُرى. أيّ شيء يمكن أن يبرز في الميدان، ويبعث في روح الجنود مثل هذه التضحية والفداء، وهم ذوو أفكار بسيطة، وقلوب صافية؟

أيّ عنصرية يمكن أن تحلّ محلّ هذا المفهوم العلوي؟

وأيُّ فكر غيره، يمكن أن يجعل المرء يضحّي بحياته وبدنياه كلّها طوعاً في سبيله؟

الثانية: الأمة الإسلامية كالجسد الواحد، وقد بكى ٣٥٠ مليون مسلم لسقوط هذه الدولة الإسلامية، وهذا ما حمل المحتلين الأوروبيين على الانسحاب من المناطق التي احتلوها منها، حتى لا يثيروا عليهم مشاعر مئات الملايين من المسلمين.

فهل تُستصغر هذه القوة الظهيرة المعنوية والدائمة لهذه الدولة؟

وهل يمكن إنكارها؟

تُرى.. أيّ قوة أخرى يمكن أن تحلّ محلّها؟

هذا هو ميدان التحدّي، فليظهروا تلك القوة.

لذا لا يجوز أن نجعل تلك القوة الظهيرة العظمى تعرض عنا، لأجل التمسك بقومية سلبية، وحمية مستغنية عن الدين.

«ونقول للذين يبدون حماسة شديدة للقومية السلبية: إن كنتم -حقاً- تحبّون هذه الأمة.. فعليكم أن تحملوا في قلوبكم غيرة تسع الإشفاق على غالبية هذه الأمة، لا على قلّة قليلة منها.. إذ الحمية بمفهوم العنصرية يمكن أن تجلب النفع والفائدة لاثنين من كل ثمانية أشخاص، فائدة مؤقتة، فينالون مالايستحقون من الحمية، أما الستة الباقون، فهم محرومون»[1].

وأحياناً لا يملك إلا أن يصرخ بملء فيه، في وجوه أولئك القوميين أهل البدع: «يا أدعياء القومية السّكارى! إن العصر السابق، ربّما كان يُعدُّ عصر القومية، أمّا هذا العصر، فليس بعصر القومية، إذ إن مسائل البلشفية والاشتراكية تستحوذ على الأفكار، وتحطم مفهوم العنصرية، فقد ولى عصر العنصرية.

واعلموا أن ملّيّة الإسلام الدائمة الأبدية، لا ترتبط مع العنصرية المؤقتة المضطربة، ولا تلقح بلقاحاتها. وحتى لوحدث هذا التطعيم بلقاحات العنصرية، فإنها تفسد أمة الإسلام»[2].

٧ - وهكذا ديدن الأستاذ النورسي في مواجهة التيارات المعادية للإسلام، كالاشتراكية والشيوعية والصهيونية والمذاهب الوضعية، والفلسفات المادية الطبيعية، وما إليها من تيارات ضجّ بها هذا القرن، وضجّت منها بلاد

---

(١) المكتوبات، ص ٤١٩ - ٤٢٠.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٦٦.

المسلمين، يقول بديع الزمان: «إن الخطط المرسومة ضدّ الإسلام من قبل الشيوعية والصهيونية قد أخفقتها رسائل النور».

ثم يقول: «إن مجابهة أولئك، والتصدي لهم، أو حتى النقاش معهم، لا يكون إلا بقراءة رسائل النور، فالرسالة الواحدة تقابل آلاف الخطط الخفية ضدّ الإسلام، لأنها تخاطب جميع الطبقات. ابتداء من الأمي، وانتهاء بالفيلسوف»[1].

ويخاطب المفكرين الظلاميين من عبّاد الفكر الغربي والعلماني المعادي للإسلام:

«على المفكرين الذين غشيهم ظلام، أن يدركوا الكلام الآتي: لا يتنوّر الفكر من دون ضياء القلب، فإن لم يمتزج ذلك النور وهذا الضياء، فالفكر ظلام دامس، يتفجّر منه الظلم والجهل، فهو ظلام قد لبس لبوس النور (نور الفكر) زوراً وبهتاناً.

ففي عينك نهار، لكنه بياض مظلم، وفيها سواد، لكنّه منوّر. فإن لم يكن فيها ذلك السواد المنوّر، فلا تكون تلك الشحمة عيناً، ولا تقدر على الرؤية.

وهكذا.. لا قيمة لبصر دون بصيرة، فإن لم تكن سويداء القلب في فكرة بيضاء ناصعة، فحصيلة الدماغ لا تكون علماً ولا بصيرة.. فلا عقل دون قلب»[2].

وكان أولئك المفكرون الظلاميون، سماسرة الظلم الإنساني، يروّجون للربا وللبنوك الربوية، ويسخرون من الزكاة والصدقات، فانبرى لهم، وبيّن فساد القائلين بمدنيّة الربا، ورجعية الدين الآمر بالزكاة، وفساد ما يدعون إليه، وظلمه، فقال: «الربا يسبّب العطل، ويطفىء جذوة الشوق إلى العمل.

إن أبواب الربا ووسائطه (هذه البنوك) إنما تعود بالنفع إلى أفسد البشر وأسوئهم، وهم الكفار، وإلى أسوأ هؤلاء وهم الظلمة، وإلى أسوأ هؤلاء وهم أسفههم.

إن ضرر الربا على العالم الإسلامي ضررٌ محض. والشرع لا يرى تحقيق رفاهية البشر قاطبة في كل حين، إذ الكافر الحربيّ لا حرمة له، ولا عصمة لدمه»[3].

«فإن أرادت البشرية دوام الحياة، فعليها أن تستمسك بالزكاة، وتطرد الربا، إذ إن عدالة القرآن واقفة بباب العالم، وتقول للربا: (ممنوع. لا يحق لك الدخول. ارجع).

---

(1) أسيد إحسان قاسم، ذكريات عن سعيد النورسي، ص ١١٥.

(2) الكلمات، ص ٨٤٨.

(3) المصدر نفسه، ص ٨٧٧ – ٨٧٨.

ولكنّ البشرية لم تصغ إلى هذا الأمر، فتلقّتْ صفعة قوية (الحرب العالمية الثانية) وعليها أن تصغي إليه، قبل أن تتلقّى صفعة أخرى أقوى وأمرّ»[1].

وأخيراً اسمعه وهو يتحدث عن الطريق غير المشروع، وكيف أنه يؤدي إلى خلاف المقصود، فيقول لعشّاق أوروبا وحضارتها المادية العارية من الأخلاق: «القاتل لا يرث» دستور عظيم.

إن الذي يسلك طريقاً غير مشروع لبلوغ مقصده، غالباً ما يجازى بخلاف مقصوده، فمحبّة أوربا غير المشروعة، وتقليدها، والألفة بها، كان جزاؤها العداء الغادر من المحبوب، وارتكاب الجرائم.

نعم.. فالفاسق محروم لا يجد لذة ولا نجاة»[2].

كان أسلوب الأستاذ يتصف مع هؤلاء بالهجوم العنيف، وذلك بدحض أباطيلهم، بإيراد الأدلة القوية الكافية، وتفنيد اتهاماتهم الظالمة، مع التذكير المستمر بأن هناك عذاباً ينتظرهم في الدنيا، كما أن هناك عذاباً أليماً في الآخرة.

ورسائل الأستاذ «لا تكتفي بالهجوم أو الكشف عن السيئات الظاهرة لأهل الضلالة فحسب، وإنما تغزو أفكارهم وحججهم الواهية، ونقاط استنادهم الفكري، فتغزوها في جحورها، وتشنّ هجوماً شديداً عليها، محطّمة جميع الأسس التي يقوم عليها بناؤهم الفكري، وأباطيلهم لتشويه حقائق الإسلام، وجماله المقدّس، كاشفة عن دسائسهم في التفريق بين المسلمين، وصدّهم عن التلذذ بنعمة الإيمان»[3].

---

(1) المصدر نفسه، ص ٨٥١ – ٨٥٢.

(2) المصدر نفسه، ص ٨٥٢.

(3) الصالحي، ص ١٦١–١٦٢.

ملامح خطته الإصلاحية والتغييرية

أولاً: صفات لابدّ منها في حامل لواء التغيير

ليس كل قائد قادراً على الإصلاح والتغيير، وإن زعم لنفسه وللناس، وإن زعم له من يحيط به من بطانة وأتباع ذلك، والقادة التاريخيون الذين قاموا بعمليات التغيير قلائل عبر التاريخ، والذين زعموا أنهم قادة عظام كثر، ولكن الزمان طواهم فيمن طوى من الناس، ولم يعودوا شيئاً مذكوراً في التاريخ.

ولكثرة أولئك (القادة) الأدعياء، وجدنا من يضع صفات لابدّ من تحققها في القائد القادر على التغيير والإصلاح، كالباحث الإداري ماكوين الذي بيّن مواصفات القادة الذين ظهروا في أعوام النموّ اللانهائي (الأيام الذهبية) في الستينيات والسبعينيات فقال:

«إن الخصال الحميدة للمقدام والجريء -أي النمط القيادي الناجح في تلك الأيام- هي:

- التفاؤل.
- تحمّل الخسارة أو الخطر.
- المساواة بين العاملين مع تقدير المتفوق.
- التعطش من أجل كل جديد ومستحدث.
- أخلاقيات مهنية لايطرأ الشك في جدواها على أصحابها.

وأمّا خصاله السيئة فهي:

- المداورة.
- الإغواء.
- الحاجة المستديمة للمغامرة كالمراهقين.

وهذا يؤدي إلى مشاكل ينشأ عنها: عدم الثقة، وأزمات»[1].

---

[1] بشير شكيب الجابري، القيادة والتغيير، ص ٣٨ - ٣٩.

ويلخّص الأستاذ الجابري ويحدّد بعض ما تتميز به القيادات المغيّرة بالتالي:

- المقدرة على الفهم العميق لسنن التغيير وأساليبه.
- والمقدرة على صياغة الرؤى.
- والاستقامة الضرورية لبناء الثقة، والحصول على تأييد التابعين، وتعبئة الالتزام.
- ثم أهلية بناء الوضع الجديد، من إدخال التغيير إلى نظم المنظومة، والالتزام الشخصي بالسلوك المطلوب.
- الاهتمام بالربط بين الأفكار وبين سلوك الأتباع»[1].

ونظرة شاملة ودقيقة إلى حياة الإمام النورسي، تنبئ عن تحقق أكثر هذه الصفات فيه.. نقول: أكثر، ولا نقول: كل.. لأن طبيعة الحياة القاسية.. بل التي لم أسمع بمثلها، ولم أقرأ عن الأقل منها بكثير.. هذه الحياة التي أمضاها أو أمضى زهرتها القادرة على العطاء، في السجون والمعتقلات، وفي المنافي والمحاكمات (٢٨ سنة سجن ونفي – ١٥٠٠ محاكمة) لم تتح له شيئاً ولو يسيراً من الاستقرار، لوضع نظرية متكاملة في البناء الداخلي لتنظيم عصري يتناسب مع ضخامة الرأس الذي ملىء علماً وفهماً، ومع تفكيره العميق، وسعة آفاقه، كما لم تتح له وضع خطة للتغيير، بعناصرها ومقوّماتها.. بل أزعم أن النورسي لو تمتع بهامش من الحرية، كما تمتع الإمام البنا في مصر، والإمام المودودي في شبه القارة الهندية، لكان لنا منه ما كان من الإمامين المذكورين، والله أعلم، ولكن (لو) تفتح باب عمل الشيطان، فلنمسك، ولنقل: ماشاء الله كان.

١ - **التفاؤل:** كان الأستاذ –رحمه الله– متفائلاً دائماً، وما ينبغي له إلا أن يكون كذلك، لأن التشاؤم واليأس والقنوط من صفات الكافرين، والنورسي من سادة المؤمنين المتفائلين بالنصر المبين لهذا الدين، وقد سبق أن ذكرنا نظرته المستقبلية عن أوروبا الحبلى بهذا الدين الحنيف، وسوف تلد يوماً نراه قريباً بإذن الله وعونه، ويراه غيرنا بعيداً أو مستحيلاً.

برغم المثبّطات والمحبطات والحياة المريرة، والمؤامرات الداخلية والخارجية على الإسلام والمسلمين، وبرغم السجون والمعتقلات والمنافي والمحاكمات.. برغم هذا

---

[1] المصدر نفسه، ص ٧٠ – ٧١.

كله، كان الأستاذ -رحمه الله- متفائلاً، ومؤملاً بإصلاح الفساد الذي استشرى في الدولة العثمانية، وفي صفوف المسلمين ورجال الإدارة والحكم. «ففي سنة ١٩١١م سافر النورسي إلى بلاد الشام، وألقى خطبته البليغة من على منبر الجامع الأموي، دعا فيها المسلمين إلى اليقظة والنهوض، وبيّن فيها أمراض الأمة الإسلامية، مبتدئاً باليأس، وبيّن سبل علاج تلك الأمراض، مستهلاً بالأمل[1].

«ولمّا آلت الدولة العثمانية إلى السقوط، ودخلت الجيوش الكافرة استانبول، كان بديع الزمان يحسّ بآلام في أعماق قلبه، وبدأ بتأليف كتابه (الخطوات الست) هاجم فيه الغزاة بشدّة، وأزال دواعي اليأس الذي خيّم على كثير من الناس»[2].

برغم الظلام الذي لفّ آسيا ومسلميها، كان يرى مستقبلها في هذا الإسلام، وليس في تلك الدعوات الهدامة التي اجتاحتها في جملة ما اجتاحت من ديار الإسلام والمسلمين. اسمعه يقول، وعينه تمتد إلى المستقبل المأمول: «وغداً أنطلق إلى ساحة عقباي، وأنا على يقين: أن مستقبل آسيا بأرضها وسمائها يستسلم ليد الإسلام البيضاء، إذ يمينه يمن الإيمان يمنح الطمأنينة والأمان للأنام»[3].

وهو متفائل بمستقبل الإنسان المستضعف المظلوم الذي سيكسر قيوده يوماً ما، ضمن نظرة مستقبلية قائمة على دراسة الماضي بمراحله التي اجتازها هذا الإنسان: «إن الحروب الطفيفة بين الدول والشعوب، تتخلّى عن مواضعها إلى صراعات أشدّ ضراوة بين طبقات البشر، لأن الإنسان لم يرض في أدواره التاريخية بالأسر، بل كسر الأغلال بدمه، ولكنه الآن أصبح أجيراً يتحمل أعباءه، وسيكسرها يوماً ما.

لقد اشتعل رأس الإنسان شيباً بعد أن مرّ بأدوار خمسة: الوحشية، والبداوة، والرق، وأسر الإقطاع. وهو الآن أجير. هكذا بدأ، وهكذا يمضي»[4].

---

(١) المثنوي العربي النوري، ص ١٥.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٦.
(٣) الكلمات، ص ٨٣٧.
(٤) المصدر نفسه، ٨٥٢.

ولنسمع شهادة أحد تلاميذه وهو يروي هذه الحادثة التي تدل على تفاؤله من كل ما يحيط به:

«كنت جالساً مع الأستاذ في جامع (نور شين) فقال لي:

– يا ملاّ حميد. انظر. إنني محاط بالأنوار.

فلم أفهم قصده من هذا الكلام، فبدأ يوضّح كلامه بقوله:

– إن القرية التي ولدت فيها اسمها (نورس)، واسم والدتي (نورية) وجدّي هو (نوري) والجامع الذي أبيت فيه (نورشين).

ثم تبسّم وقال:

– انظر إلى اللوحة المعلّقة هنا على الحائط، فقد كُتب: (عثمان ذو النورين) رضي الله عنه»[1].

٢ - **تحمّل الخسارة أو الخطر.** ولسنا في حاجة للوقوف طويلاً عند هذا البند، فحياة النورسي كلّها –إذا قيست بالمقاييس المادية الدنيوية– خسارة في خسارة، خرج من دنياه كما دخل فيها أول يوم، ولم يشكُ، ولم يتأفف، ولم يسأل أحداً مساعدة، بل كان ينفق من القليل الذي عنده على من معه من تلاميذه ومريديه، أو من سائر الناس، بل كان لايقبل هدية من أحد، لأنه لا يتحمّل أذى المنّ عليه من أحد، بهدية أو سواها، لأسباب:

أ – لأن أهل الضلالة يتهمون العلماء باتخاذهم العلم وسيلة للتكسب. ويجب تكذيبهم.

ب– يجب الاستغناء عن الناس، كما فعل الأنبياء.

جـ– المعطي يعطي باسم نفسه، فيتمنّن ضمناً.

د– إن التوكل والقناعة والاقتصاد خزينة عظيمة، وكنز ثمين لا يعوّضان بشيء. لا أريد أن أسدّ أبواب تلك الخزائن والكنوز التي لا تنفد، بأخذ المال من الناس»[2].

وكان يقول: «إنني أعيش بالاقتصاد والبركة، لا أقبل من غير رزّاقي الله منّة من أحد، وقررت ألاّ أقبلها طوال حياتي»[3].

---

(١) الصالحي، ص ٢٣.

(٢) المكتوبات، ص ١٦ و ١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٢ وانظر الصفحات: ٨٤ – ٣٦٩ – ٤٧٢ – ٥٤١.

وأمّا الخطر الذي كان يلاحقه كالليل ويحيط به، فقد تحمّله وتقبّله راضياً.. حاولوا قتله بالسمّ مراراً، كما حاولوا توهين عزيمته وقواه الجسدية إلى درجة القتل في السجون والمعتقلات والمنافي، ولم يأبه لتلك الأخطار، ولم يكترث بالمتآمرين على حياته، لأنه كان يعتقد أن الأجل خير حارس للإنسان، فـ ﴿لكل أجل كتاب﴾[1] و﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾[2].

ولذلك كان يناضل ويجاهد على عدة جبهات، وكلّها محفوفة بالأخطار، نذكر منها:

أ – «في سنة ١٩١٢ وقبيل نشوب حرب البلقان، عُيّن بديع الزمان قائداً للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين المسلمين القادمين من شرقي الأناضول»[3].

ب– «على الرغم من معارضته دخول الدولة العثمانية الحرب، فإنه حالما أُعلنت، شكّل من طلابه ومن المتطوعين فرق (الأنصار) وخاض بهم ميادين القتال، وأبلوا البلاء الحسن ضدّ القوات الروسية المعتدية في جهة القفقاس.

وعندما دخل الجيش الروسيّ مدينة (بتليس) كان بديع الزمان يدافع مع طلابه عن المدينة دفاعاً مستميتاً، حتى جُرح جرحاً بليغاً، وأُسر من قبل الروس، وسيق إلى معتقلات الأسرى في سيبريا.

وفي الأسر كان يلقي دروسه الإيمانية على الضبّاط الذين كانوا معه، وهم تسعون ضابطاً»[4].

جـ – عندما احتلت قوات الحلفاء (الإنكليز والفرنسيين) مدينة استانبول، ودُعي إلى أنقرة، أبى أن يغادر العاصمة المحتلّة، وحياته فيها محفوفة بالخطر، وقال: «إنني أريد أن أجاهد في أكثر الأماكن خطراً، وليس من وراء الخنادق، وأرى أن مكاني هنا أخطر من الأناضول»[5].

---

(١) سورة الرعد، آية ٣٨.

(٢) سورة يونس، آية ٤٩.

(٣) محسن عبد الحميد، ص ٢٠، نقلاً عن (سعيد النورسي وجوانب مجهولة من حياته)، ص ١٤٨

(٤) المثنوي العربي، ص ١٥.

(٥) صيقل الإسلام، ص ٥٤٦ – ٥٤٧.

هذا برغم أن القائد الإنكليزي الذي احتلّ استانبول كان قد حكم عليه بالإعدام، ثم تراجع عن تنفيذ الحكم ، خوف ثورة المسلمين عليه، وكان النورسي قد ألّف كتابه: (الخطوات الست) وهاجم فيه المحتلين، وردّ على شبهاتهم التي أثاروها حول الإسلام[1].

د – وأخيراً نذكر هذا الجزء اليسير من مرافعته الهائلة أمام محكمة دنيزلي، قال لقضاة المحكمة في جرأة مَنْ لَمْ يَسْمَعْ بالموت:

«إن الزنادقة والمنافقين غرّروا بكم، وصفعوا العدل والحق، وانحرفوا بالدولة عن وظيفتها الأساسية، إلى مشاغل لا فائدة منها، واتخذوا من الاستبداد جمهورية، ومن الردّة نظاماً، ومن الجهل والسفه مدنيّة، ومن الظلم قانوناً، وبذلك خانوا وطنهم، وضربوه ضربة ما كان لأجنبي أن يضرب مثلها»[2].

وقال في أحد دفوعه في أخريات أيامه، موجّهاً كلامه للقضاة: «ألا فلتعلموا جيّداً، أنه لو كان لي من الرؤوس بعدد ما في رأسي من شعر، وفُصل كلّ يوم واحد منها عن جسدي، فلن أحني هذا الرأس الذي نذرته للحقائق القرآنية، أمام الزنادقة»[3].

٣ – أمّا مساواته بين تلاميذه والعاملين معه، وحتى مع المجرمين الذين كانوا معه في السجن، فكانت خلقاً من أخلاقه، وصفة بارزة من صفاته، بل كانت من ضمن الدستور الاجتماعي الذي وضعه لنفسه ولطلاب النور، وهو القائل: «إن العدالة التي لا مساواة فيها، ليست عدالة أصلاً».

٤ – وأمّا تعطشه لكل جديد ومستحدث، فقد مرّ معنا موقفه من العلوم الكونية، وخاصة التكنولوجيا، ودعوته إلى تدريس العلوم العصرية إلى جانب العلوم الدينية في المدارس الدينية، وحثّه الناس ليرسلوا أبناءهم إلى المدارس الحديثة. «وعندما دخلت رسائل النور المطابع، وبدأت في الانتشار، لم تكن ترى الأستاذ جالساً في مكانه قط، بل كان يصول ويجول في فعالية مستمرة، ونشاط دائم. كان فرحاً سعيداً دائماً، بحيث يكاد يطير من فرحه»[4].

---

(١) الوصيف، ص ١٤٢.

(٢) سيرة إمام مجدد، ص ٥٧، والشعاعات، ص ١٨، والدكتور محسن عبد الحميد، ص ٣١.

(٣) الشعاعات، ص ٢٩٤.

(٤) أسيد إحسان قاسم، ص ١١٠.

٥ – وسوف يرى دارس رسائل النور مدى فهمه العميق لسنن التغيير وأساليبه، ومقدرته على صياغة الرؤى، ومدى اهتمامه بالربط بين الأفكار التي ينشرها بين أتباعه، وبين السلوك العملي لأولئك الأتباع الذين ربّاهم على عينه، من خلال سلوكه الذي غدا قدوة لهم أولاً، ومن خلال رسائل النور التي كانت تنوب عنه، وهي تتسلل إلى أيدي تلاميذه الكثر، ثم إلى قلوبهم وعقولهم.

٦– ما عرف الناس عن الأستاذ شيئاً من المداورة أو الغش أو الكذب، أو اللف والدوران، ولنتمعن في هذه الكلمة القيمة، التي توضّح نظافة سلوك هذا الإمام المتوضّىء بالزهد والعفة والصدق وبسائر الفضائل: «حبة واحدة من صدق، تبيد بيدراً من الأكاذيب.

إن حقيقة واحدة تهدم صرحاً من خيال.

فالصدق أساس عظيم، وجوهر ساطع. وربما يتخلى عن مكانه للسكوت، إن كان فيه ضرر، ولكن.. لا موضع للكذب قطعاً، مهما يكن فيه من فائدة ونفع.

ليكن كلامك كله صدقاً، ولتكن أحكامك كلها حقاً، ولكن عليك أن تدرك هذا : أنه لا حقّ لك أن تبوح بالصدق كلّه.

اتخذ هذه القاعدة دستوراً لك: «خذ ما صفا، دع ما كدر، فانظر بحسن، وشاهد بحسن، ليكون فكرك حسناً، وظُنّ ظناً حسناً، وفكّر تفكيراً حسناً؛ لتجد الحياة اللذيذة الهانئة.

إن الأمل المندرج في حسن الظن ينفع الحياة في الحياة.

بينما اليأس المخبوء في سوء الظن، ينخر سعادة الإنسان، ويقتل الحياة»[1].

إنه بعيد بعد السماء عن الأرض، عن سفاسف الأمور، وترّهاتها، وما ينبغي لمثله إلا أن يكون كذلك.. لا يغشّ أتباعه، ولا أحداً من الناس، لأن الغاش ليس من المسلمين، ولا يخدعهم، ولا يلقي بهم في المهالك، نتيجة نزوة صبيانية، أو مراهقة فكرية أو عاطفية، وبهذا استطاع المحافظة على تلاميذه جهد المستطاع، وكان قمة في افتدائهم بنفسه، وكان في الوقت نفسه لا يساوم على حساب دينه وعقيدته، وكان

---

[1] الكلمات، ص ٨٥٤.

يقف في وجوه الطغاة في أقسى الظروف، لا يخشى في الله لومة لائم، وقد تسامى بإيمانه فوق كل أعراض الدنيا، وما كان يرضى الدنيّة في دينه[1].

وبهذا تجاوز الأزمات مع أتباعه ومريديه، ونال ثقتهم إلى أبعد حدّ متصوَّر.

ثانياً: بعض ملامح خطته التغييرية والإصلاحية: أعترف بادىء ذي بدء أنني لم أطلع على كل ما كتبه الإمام النورسي رحمه الله رحمة واسعة، ولذلك قلت: (بعض ملامح) ولم أقل: (ملامح) لأن هذا يتطلب أكثر من الجهد الفردي لتراث فكري ضخم، ولحياة حافلة ما زال كثير من جوانبها مجهولاً إلى الناس، بسبب الإمام نفسه، وبفعل الظروف التي أحاطت به، وبفعل القوى السياسية والفكرية والثقافية المعادية له، وهي قوى كبيرة ضخمة لا يستهان بها، وكم كانت تتمنى لو استطاعت القضاء على فكر الرجل، وتجهيل الناس بذلك الفكر العملاق، بإخفائه ودفنه في مكان مجهول، كما فعلوا بجثمانه الشريف بعد موته، ولكن.. هيهات.

أحسّ بديع الزمان -في وقت مبكر، وفي زمن السلطان عبد الحميد الثاني رحمه الله- بالفساد والفوضى والتخلف الذي أصاب الحياة السياسية والاقتصادية والفكرية والروحية، وعرف أن الجهل الضارب أطنابه في أوساط العامة، يحتاج إلى حركة تغييرية قبل فوات الأوان، فالنذر كثيرة، وهي تشير إلى الموقع المتخلف للدولة والأمة اللتين تواجهان تحدّيات ضخمة، داخلية وخارجية، وهما غير قادرتين على مواجهة تلك التحديات الحضارية، والمؤامرات المتداخلة، إلا إذا غيّر الناس ما في أنفسهم، من بُعد عن الله العظيم، وعن دينه القويم، وأخلاقه السمحة، ومبادئه العادلة.. عرف الموقع المتخلف للأمة، كما عرف أين يجب أن تكون، حتى تحافظ على نفسها، وعلى كيانها، وعلى دينها وقيمها.. يقول بديع الزمان:

«إن هذه الدولة التي أخذت على عاتقها منذ السابق، حماية استقلال العالم الإسلامي، وإعلاء كلمه الله، بالقيام بفريضة الجهاد -فرضاً كفائياً- ووضعت نفسها موضع التضحية والفداء عن العالم الإسلامي الذي هو كالجسد الواحد، حامل راية الخلافة.. أقول: إن هذه الدولة، وهذه الأمة الإسلامية ستعوّض عن هذا البلاء الذي أصابها، سعادةَ يرفل بها العالم الإسلامي، وحرية يتمتع بها، وستتلافى المصائب

---

(1) نبيه زكريا عبد ربه، الحركات الإسلامية ضد الصهيونية والصليبية والشيوعية، ٣٠٣.

والأضرار الماضية، فالذي يكسب ثلاث مئة يدفع ثلاث، لا شك أنه غير خاسر. وذو الهمّة يبدل حاله الحاضرة إلى مستقبل زاهر. فهذه المصيبة قد بعثت الشفقة والأخوة والترابط بين المسلمين بعثاً خارقاً»[1].

ويعزو أسباب الحرب العالمية التي أنزلت بالبشرية الكوارث، وحصدت ملايين الرؤوس.. إلى «الضلال الناشىء من الفكر المادي، والحرية الحيوانية، وتحكم الهوى.

أما ما يعود إلينا من سبب فهو: إهمالنا أركان الإسلام، وتركنا الفرائض، إذ طلب منا -سبحانه وتعالى- ساعة واحدة من أربع وعشرين ساعة، طلبها لأجلنا نحن، لأداء الصلوات الخمس، فتقاعسنا عنها، وأهملناها غافلين، فجازانا بتدريب شاق دائم لأربع وعشرين ساعة، طوال خمس سنوات متواليات. أي أرغمنا على نوع من الصلاة.

وإنه -سبحانه- طلب منا شهراً من السنة نصوم فيه ، رحمة بأنفسنا، فعزت علينا نفوسنا، فأرغمنا على صوم طوال خمس سنوات، كفّارة لذنوبنا.

وإنه سبحانه طلب منا الزكاة عُشراً أو واحداً من أربعين جزءاً من ماله الذي أعطاه لنا، فبخلنا وظلمنا وخلطناه بالحرام، ولم نعطها طوعاً، فأرغمنا على دفع زكاة متراكمة، وأنقذنا من الحرام. فالجزاء من جنس العمل»[2].

وهذا يعني أنه لا بدّ من إصلاح هذا الخلل، حتى لا تستشري المصائب والكوارث والانتقام الرباني.

ثم ازداد إحساسه ووعيه بواقع الحال البئيس، والأوضاع التي تزداد تردّياً، بسبب السياسة الحمقاء التي ينتهجها العلمانيون القوميون الكماليون، أصحاب الفكر الدخيل، على أيدي الدخلاء من يهود الدونمة، ومن الذين يتلقون الخطط والدسائس من المحافل الماسونية، لإفساد عامة الناس وخاصتهم، من خلال سياسة المنافع، هذا الوحش الرهيب الجائع المتعطش إلى امتصاص دماء كل الفضائل والقيم التي ارتقت بهذه الأمة حتى جعلتها فوق سائر الأمم، إنسانية وعدالة ورحمة وجمالاً وجلالاً.

---

(1) الكلمات، ص ٨٥٤.

(2) المصدر نفسه، ص ٨٥٩.

«والتودد إلى وحش جائع لا يدرّ عطفه، بل يثير شهيته، ثم يعود ويطلب منك أجرة أنيابه وأظفاره»[1].

تساءل بديع الزمان: أين نحن الآن؟

وأجاب نفسه: في ذيل الدول.

– لماذا؟

– لبعدنا عن ديننا العظيم، بسبب الجهل والتخلف والفقر والاختلاف والاستبداد والخمول والتآمر.

– وماذا علينا أن نفعل؟

– كما أمر الله –سبحانه– وكما بيّن أعظم سبب للتغيير: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[2]، عندما غيّرنا قيمنا، وتركنا إسلامنا، وقلّدنا غيرنا، وماتت الفضائل في أنفسنا، غيّر الله ما بنا من نعمة، فانتكسنا، ورجعنا القهقرى، ونحن الآن في ذيل الأمم، وإذا أردنا النهوض من جديد، فما علينا إلا تغيير ما في أنفسنا من فساد، وإلا العودة إلى هذا الدين العظيم، نتمسك بأهدابه، ونطبق تعاليمه في حياتنا العامة والخاصة.

يقول بديع الزمان: «إن سياسة المدنية الحاضرة تضحي بالأكثرية في سبيل الأقلية، بل تضحّي قلة قليلة ظالمة، بجمهور كبير من العوام في سبيل مقاصدها (مصالحها).

أما عدالة القرآن، فلا تضحّي بحياة برّيء واحد، ولا تهدر دمه لأي شيء كان، لا في سبيل الأكثرية، ولا لأجل البشرية قاطبة، إذ الآية الكريمة: « من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض، فكأنما قتل الناس جميعاً» تضع سرّين عظيمين أمام نظر الإنسان:

الأول: العدالة المحضة، ذلك الدستور (القاعدة) العظيم الذي ينظر إلى الفرد والجماعة والشخص والنوع نظرة واحدة ، فهم سواء في نظر العدالة الإلهية، مثلما أنهم سواء في نظر القدرة الإلهية، وهذه سنّة دائمة.

---

(1) المصدر نفسه، ص ٨٥٦.

(2) سورة الرعد، آية ١١.

والسرّ الثاني: هو لو قتل مغرور بريئاً دون ورع، تحقيقاً لحرصه، وإشباعاً لنزواته وهوى رغباته، فإنه مستعد لتدمير العالم والجنس البشري إن استطاع»[1].

إذن.. وضع بديع الزمان يده على الداء، كما وضع يده على الدواء..

الداء: هو البعد عن هذا الدين، وما تبعه من جهل وتخلّف وفوضى أخلاقية، **والدواء** بكل بساطة: يكمن في العودة إلى هذا الدين.. بإنقاذ الإيمان.. هذا هو الهدف الاستراتيجي الذي ألزم به نفسه وإخوانه منذ صمّم على الإصلاح والتغيير، فإذا عاد الناس إلى إسلامهم وإيمانهم، سلم مسارهم عبر الدروب الموصلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة.

وكان هاديه ومرشده في كل خطوة يخطوها في هذا المسار، هو القرآن والسنة.. يهتدي بنورهما في ذلك الظلام الذي لفّ تركيا، وهو يسير فوق الأشواك وبين الألغام، كما سار قائده الأعظم –صلى الله عليه وسلم– وهو يشق طريقه إلى القلوب والعقول التي كانت غارقة بلوثات الجاهلية الوثنية العمياء. ومن هنا كان لابد من الإعداد من أجل عملية الإصلاح والتغيير:

أولا: إعداد النفس والفرد:

أ – ولكي يقوى على مكابدة وعثاء الطريق الشائك، كان لا بدّ له من أن يأخذ نفسه بالترويض والتربية التي تزكّيها، وتعينها على تذليل العقبات الكؤود التي ستعترض طريقها، وعلى تحّمل الآلام والأحزان وألوان العذاب الذي ينتظره، سنة الله في الدعوات والدعاة..

بدأ بنفسه فعالج أمراضها، وخلصها من أوهاق الحياة المادية، ومن كل ما يخدش المروءة والعفّة والفضيلة، وزهد في كل ما يقتتل الناس من أجله.. زهد في المال والجاه والمنصب، وزهد بالشهرة والسمعة، وكل ما يتهافت عليه أبناء الدنيا، حتى غدا مثلاً حياً لما يدعو إليه .. تطابقت عنده النظرية مع السلوك، ولم تعد ثمة هوّة تفصل بينهما كدأب أكثر الناس ومنهم الدعاة أو علماء الدين.. أصلح نفسه قبل أن يدعو الآخرين، فوقع في قلوب الناس.. وقع كلامه وسلوكه وشخصيته المعنوية في قلوب الناس، حتى صار مثلاً يحتذى، وقدوة

---

[1] المصدر نفسه، ص ٨٦٢.

تربي طلابها بأفعالها قبل أقوالها. وقد قال عن نفسه: «لا بدّ أن أبدأ بها أولاً، لأن من عجز عن إصلاح نفسه، فهو عن غيرها أعجز»[1].

والذي يطالع كتابه البديع: (المثنوي العربي النوري) الذي كتبه لنفسه قبل أن يكتبه للآخرين، وفيه خلاصة أفكاره، بما فيه من موازين علمية، ومعايير منطقية، ومناهج فطرية، تسدّ جوعة الروح، وهزال الفكر -يجد فيه نمطاً جديداً وفريداً من أساليب التزكية والتربية، فقد «مزج فيه أدقّ الموازين العقلية، والمقاييس المنطقية، بأرفع الأشواق القلبية، وأسطع التفجرات الروحية، ضمن أمثلة ملموسة تكاد لا تخفى على أحد، آخذاً بيد القارىء برفق، متجولاً معه في ميادين النفس والآفاق، مبيناً له ما توصّل إليه من نتائج يقينية، بعد تجارب حقيقية، خاض غمارها تحت إرشاد القرآن الكريم.. المنهج القرآني الفريد لكل مسلم، بل لكل إنسان»[2].

ب - ثم ثنّى بإخوانه، ليكونوا الدعاة الوعاة في مجتمع تتناوشه العلمانية، ليشكّل منهم القاعدة الصّلبة، والدروع القوية، ومنابع النور في مجتمع الكمالية التي ضرب العدّو فيها رواقه، ومدّ أطنابه.. تعهّدهم بدروسه ومواعظه ورسائله، يكشف لهم حقيقة ما يجري على الأرض التي حمى أصحابها الإسلام والمسلمين قروناً، ويهدم أروقة العلمانيين والمستغربين والقوميين، ويفنّد مزاعمهم وطروحاتهم، ويملأ قلوب طلاب النور بأنوار القرآن الكريم، وسنّة النبيّ العظيم، ويشحن نفوسهم بطاقة إيمانية، ويسلّح عقولهم بالأدلة والبراهين، لينطلقوا -من ثمّ- إلى بيوتهم، وقراهم، وأحيائهم، وأماكن عملهم، يبشّرون بتعاليم الإسلام، لا يخشون في الله لومة لائم، ولا يأبهون بكيد الكائدين، ولا بسجون الحاكمين، ولا بضلالات البلاشفة الملحدين.

كانت حياة الإمام مع القرآن، ومع منزل القرآن، ومع مبلّغ القرآن، وكذلك كانت حيوات الخلّص من تلاميذه طلاب النور.. ولا بدّ لمن عاش مثل هذه الحياة، أن يبادر إلى تصحيح المسار، وتقويم الانحراف، والتبشير بالأفكار المحورية التي تساعد في إنجاح مشروع التغيير والإصلاح.

---

(1) المصدر نفسه، ص ٢٩٧.

(2) من مقدمة المثنوي للصالحي، ص ٥ - ٦.

كان يبثّ الأمل في نفوسهم ، وكان –بلسان حاله الدائب على العطاء، وبلسان مقاله –يؤكد عليهم للاستمرار الجاد في الدعوة، بلا كلل ولا ملل ولا خوف، ويحذرهم من الأمراض القلبية التي شاعت في سلوك الناس، فكان لا يقبل أن يُغتاب في مجلسه أحد[1]، وكان يقول لهم وللناس جميعاً: «منبع التكبّر: صغر النفس. ومنبع الغرور: ضعف القلب. والعجز منشأ الخوف. والضيق معلّم السفاهة. ومنبع الضيق: هو اليأس وسوء الظن. والضلال ضلال الفكر. والظلمات عمى القلب»[2].

ومن أجل التركيز على مطاردة هذه الأوباء، كان يكرر هذه المعاني في أكثر من مكان: «يا من يحمل (أنا) مضاعفة. ويحمل في رأسه غروراً وكبراً. عليك أن تعرف هذا الميزان: إن مقياس العظمة في الكاملين هو التواضع، أمّا الناقصون القاصرون، فميزان الصِّغر فيهم هو التكبر»[3].

يقول أحد تلاميذه، كما جاء في كتاب (ذكريات عن سعيد النورسي): «كان يتحدث في أغلب دروسه عن الأخوة والإخلاص، وكان يشخص مرض زماننا هذا بالغرور، والأنانية، وحب النفس»[4].

«وسمّى زماننا هذا بزمان الغفلة عن الله. يقول: «في هذا الزمان ترى أصحاب الأفكار المنحرفة عن الدين، يجعلون كل شيء آلة ووسيلة لمصالحهم الخاصة، فتراهم يستخدمون الدين والعمل الأخروي وسيلة لمغانم دنيوية»[5].

أمّا طلابه طلاب النور، فلا ينبغي لهم أن يكونوا أنانيين أو مغرورين..

لقد قام الأستاذ النورسي بعملية تنوير وترشيد لطلاب النور، ليستطيعوا أداء المهمات المنوطة بهم:

– فأوصاهم بالبعد عن الجدال العقيم مع الآخرين، خاصة مع العلماء والصوفية والمبتدعة، حتى لا يندفع هؤلاء إلى جانب الملاحدة، ولا مع رجال الحكم.
– وفضح لهم خطط الملاحدة، وفند دعاوى العلمانيين الباطلة.
– ودعاهم إلى الوقوف بحزم في وجه المادية الطاغية.

---

(1) أسيد إحسان قاسم، ص ٨٨.
(2) الكلمات، ص ٨٧٣.
(3) المصدر نفسه، ص ٨٧٠.
(4) ذكريات عن سعيد النورسي، ص ٩١.
(5) المصدر نفسه والصفحة.

- وصّبرهم على المحن، فالسجن للعبادة والتوبة والإنابة، وهو حائل دون الذنوب ومدعاة لتطهير النفس. وضرب لهم الأمثال بالأئمة الممتحنين، كأبي حنيفة وابن حنبل.
- ودعاهم إلى الصفح عمن أساء إليهم، وألا يحملوا في نفوسهم روح الانتقام منهم ولو بمقدار ذرة[1].

وقد عُني بتلاميذه كل هذه العناية، لأنه يعتقد بحق، أن «الكيف أهم وأفضل من الكم، وتبليغ حقائق القرآن إلى عشرة أفراد بإخلاص وصدق ، أهم عندي من إرشاد آلاف في طريقة صوفية، وتبليغ الدعوة إلى عشرة أشخاص، بمنزلة نواة تنبت وتصبح شجرة ثابتة بإذن الله.. لكن هؤلاء الآلاف من المتصوفة، يمكن أن تزلزل أفكارهم أمام الهجوم الفلسفي المضلل».

ثانياً: البيت والأسرة.

وركز الأستاذ النورسي على البيت والأسرة، زوجاً وزوجة وأولاداً، ودعا إلى الحفاظ عليها، فهي الخلية الأولى في المجتمع الصالح فقال: «إن الحياة الأسرية هي قلعة الإنسان الحصينة، ولا سيما المسلم.. هي كالجنة المصغّرة، ودنياه الصغيرة»[2].

ولهذا «تعهد طالبات النور، فأرشدهن من خلال رسائل متعددة إليهن، إلى حسن الإقبال على الله، ورعاية البيوت، والأولاد، وحسن العشرة الزوجية، والحفاظ على عفتهن وطهارتهن النابعة من الدين الحنيف، وعدم الجري وراء مادياتها الحاضرة الغربية المهلكة[3].

وكتب رسالة (الحجاب) وحوكم بسببها، «وتوجّه بها أولاً إلى كل مسلمة تركية، صيانة لها من الأفكار الإلحادية التي انتشرت في تركيا، والمنادية بانسلاخ المسلمة من عقيدتها وشريعتها، ثم من عفّتها وحشمتها وحجابها، بحجة التقدم ومسايرة ركب الحضارة الغربية، فأوصاهن بالتمسك بأوامر الله، لأنها كلها رحمة، وعرّفهن بسفاسف المدنية الغربية وزيفها»[4].

---

(1) الملاحق، ص ٣٧٢.
(2) الوصيف، ص ١١٩.
(3) المصدر نفسه، ص ١٦٥.
(4) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

ودعا المرأة إلى الكسب الحلال بعمل يدها، وأوصى بالوالدين والأقارب وبإحسان تربية الأولاد، وقال: «اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة، على الإيمان، فيكونوا لكم شفعاء يوم القيامة، وأبناء بررة في هذه الدنيا[1].

وحذّر من إهمالهم هذه التربية، ومن التربية الأوربية، لأنهم يكونون وبالاً عليهم في الدنيا، ومحاسبين لهم في الآخرة، يوم يسألونهم: لمَ لم تنقذوا إيماننا؟ فيندمون، ولات ساعة مندم.

وحذر من مظاهر الميوعة في النساء والرجال فقال: «إذا تأنث الرجال السفهاء بالهوسات، ترجّلت النساء الناشزات بالوقاحات.

لقد أطلقت المدنية السفيهة النساء من أعشاشهن، وامتهنت كرامتهن، وجعلتهن متاعاً مبذولاً.

بينما شرعُ الإسلام يدعو النساء إلى أعشاشهن، رحمة بهن، فكرامتهن فيها، وراحتهن في بيوتهن، وحياتهن في دوام الأسرة.

الطهر زينتهن

الخلق هيبتهن

العفة جمالهن

الشفقة كمالهن

الأطفال لهوهن

ولا تصمد إزاء جميع هذه الأسباب المفسدة إلا إرادة من حديد».

وحذر من الاختلاط وما ينجم فيه من مفاسد: «كلما دخلت حسناء في مجلس تسود فيه الأخوة، أثارت فيهم عروق الرياء والمنافسة والحسد والأنانية، فتتنبه الأهواء الراقدة».

وبيّن مفاسد التبرج، والسفور، وأثرهما على الأخلاق: «إن تكشف النساء تكشفاً دون قيد، أصبح سبباً لتكشف أخلاق البشر السيئة، وتناميها».

---

[1] الوصيف، ص ١١٧.

وكان قد شاع انتشار الصور العارية في الصحافة، حتى السياسية والأدبية منها، ناهيك عن الصحف الفنية، فحذر منها وشرح أخطارها: «هذه الصور التي هي جنائز مصغّرة، رأموات متبسمة، لها دور خطير جداً في الروح الرعناء للإنسان المتحضر، بل إن تأثيرها مخيف رعيب».

كما أن النظر إلى جثة المرأة نظرة شهوانية دليل على دناءة النفس وخستها، كذلك النظر بشهوة إلى صورة جميلة لحسناء ميتة محتاجة إلى الرحمة، يطمس مشاعر الروح السامية.

وكذلك التماثيل التي بدأت تنتشر، كما في العواصم والمدن الأوربية: روما وباريس وغيرهما، وهي تماثيل عارية.. هاجمها، وبين آثارها السلبية على الإنسان: «إن الهياكل والتماثيل الممنوعة شرعاً، والصور المحرمة، إمّا أنها ظلم متحجر، أو رياء متجسد، أو هوى متجمد، أو طلسم يجلب تلك الأرواح الخبيثة»[1].

وإنما كان هجومه على الصور العارية، والتماثيل الفاضحة، بسبب ما تتركه من وطأة على حياة الفرد، ثم الأسرة التي يدعو إلى المحافظة عليها.

ثالثاً: ودعا إلى إصلاح المجتمع، بتخليصه من الأمراض النفسية المهلكة، من عداوة، وتحاسد، وتباغض، وفرقة، وعطالة، وتهالك على اللذات.

وكان يحارب العجز والجزع اللذين هما شأن الضعفاء فيقول: «إن رمت الحياة، فلا تتشبث بالعجز فيما يمكن حلّه، وإن رمت الراحة، فلا تستمسك بالجزع فيما لا علاج له»[2].

إنه طبيب نفساني وروحاني ملهم، لا يكاد يدع جانباً من جوانب الضعف في المجتمع، إلا ويبادر إلى معالجته بما يناسبه من دواء: «أيها الخائف الضعيف!

إن خوفك وضعفك يذهبان سدى، لا طائل وراءهما، بل يكونان عليك لا لك، لأنهما يشجعان الآخرين، ويثيران شهيتهم لافتراسك.

إن لله أن يختبر عبده، وليس للعبد أن يختبر ربه.

أيها المرتاب!

---

(1) المصدر نفسه، ص ١١٩.

(2) الكلمات، ص ٨٥٣.

إن مصلحة محققة، لا يُضحَّى بها في سبيل مضرّة موهومة.

فعليك بالسعي، والنتيجة موكولة إلى الله تعالى»[1].

ومن تلك الأمراض النفسيَّة، هذا النفاق الاجتماعي على ألسنة الناس الذين يغالون في المديح، وخاصة لذوي السلطان: «إذا وصفتَ شيئاً، فصفه على ما هو عليه.. أعتقد أن المبالغة في المدح، ذمٌّ ضمني.. لا إحسان أكثر من الإحسان الإلهي».

وكان يربّي تلاميذه على الحياة البسيطة، البعيدة عن الانغماس في الترفه، كشأن أكثر الغافلين، وخاصة في هذا الزمان الذي يتضوّر فيه أكثر المسلمين جوعاً: «كلما نادت اللذائذ، ينبغي الإجابة: (كأنني أكلت).

فالذي جعل هذا دستوراً له، لم يأكل مسجداً.

لم يكن أكثر المسلمين في السابق جائعين

فكان الترفّه جائز الاختيار إلى حدّ ما.

أما الآن، فمعظمهم يبيتون جياعاً، فلم يعد لنا إذنٌ شرعي للتلذذ.

إذ إن معيشة السواد الأعظم، وغالبية المسلمين بسيطة، فينبغي الاقتداء بهم في الطعام الكفاف البسيط.

وهذا هو الأفضل بألف مرة من الانسياق وراء أقلية مسرفة، أو ثلة من السفهاء في ترفههم في الطعام»[2].

وكان يخاطب سائر شرائح المجتمع، يكاد لا يغفل عن شريحة، حتى المرضى وأصحاب الابتلاء لهم نصيب فيما كتب، ومن رسائله القيمة في هذا المضمار (سلوة المرضى) التي قدّم فيها خمسة وعشرين دواء لأهل البلاء الذين هم عشر أبناء البشر. نذكر منها هذه المقتطفات: «أيها المريض المسكين! لا تقلق. اصبر. فإن مرضك ليس علّة لك، بل هو نوع من الدواء، ذلك لأن العمر رأسُ مَالٍ يتلاشى، فإن لم يُستثمر، فسيضيع كل شيء، وبخاصة إذا انقضى بالراحة والغفلة، وهو يحثّ الخطى إلى نهايته».

---

(1) المصدر نفسه، ص ٨٦٢.

(2) المصدر نفسه، ص ٨٦٠.

ويبرر هذا بقوله: «أيها المريض النافد الصبر. تحلَّ بالصبر، بل تجمل بالشكر، فإن مرضك هذا يمكنه أن يجعل من دقائق عمرك في حكم ساعات من العبادة، ذلك لأن **العبادة قسمان:**

الأول : العبادة الإيجابية (بالجوارح) المتجسدة في إقامة الصلاة، والدعاء، وأمثالهما.

الثاني : العبادة السلبية (بالقلب) الذي يتضرع منه المصاب، ويلجأ إلى خالقه الرحيم، مستجيراً به، متوسلاً إليه، منطلقاً من أحاسيسه التي تشعره بعجزه وضعفه أمام تلك الأمراض والمصائب، فينال بذلك التضرّع عبادة معنوية خالصة متجردة من كل أنواع الرياء»[1].

«فتذكر جيداً نتيجة المرض المؤقت الذي تعانيه، وفكّر في الثواب المرجو المنتشر في ثناياه، وتشبث بالشكر، وترفع عن الشكوى، وقل: يا هذا.. كل حال يزول»[2].

«تفكر في معنى العبادة المعنوية التي يتضمنها مرضك، والثواب الأخروي الذي يخفيه لك، واسْعَ لتنال ذلك الذوق الخالص الذكي»[3].

«فلا تبذر -يا أخي- ما وهبك الحق -سبحانه وتعالى- من قوة الصبر - يميناً وشمالاً، بل احشدها جميعاً مقابل الألم الذي يعتريك في هذه الساعة، وقل (يا صبور) وتحّمل صابراً محتسباً»[4].

ولا ينسى البعد الإنساني الأخوي في المرض: «إن المرض يلقّن صاحبه أهمّ عرى الحياة الاجتماعية والإنسانية، وأجمل أواصرها، وهما الاحترام والمحبة، لأنه ينقذ الإنسان من الاستغناء عن الآخرين، ذلك الاستغناء الذي يقود إلى الوحشة، ويجرد الإنسان من الرحمة، لأنه كما يتبين من الآية الكريمة: «إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»[5].

---

(1) سلوة المرضى، ص ٧ - ٨.
(2) المصدر نفسه، ص ١٤.
(3) المصدر نفسه، ص ١٦.
(4) المصدر نفسه، ص ٢٣-٢٤.
(5) سورة العلق، آية ٦ - ٧.

إن النفس الأمارة الواقعة في شباك الاستغناء، الناجم عن الصحة والعافية، لن تشعر بالاحترام اللائق تجاه العلاقات الأخوية، ولن تحس بالرحمة والرأفة اللائقتين بالمبتلى بالمصائب أو المرضى»[1].

ويعدّ الرأفة والرحمة أهمّ الخصال الإسلامية، ولهذا كان يربّي الناس عامة، وتلاميذه خاصة عليهما، ليكونوا الرحماء بالناس، الداعين إلى الله بهذه الصفات التي أكدها الإسلام مراراً في القرآن والسنة.

ويرى الدعوة إلى اللهو وما يتبعه من فجور قد استفحلت، وهي كفيلة بالقضاء على مروءة الناس، فبادَرَ إلى بيان رأي الشرع في هذا في أكثر من مكان، فقال:

«نهت الشريعة الغراء عن اللهو وما يُلهي.. فحّرمت بعض آلات اللهو، وأباحت أخرى. بمعنى : أن الآلة التي تؤثر تأثيراً حزيناً حزناً قرآنياً، وشوقاً تنزيلياً، لا تضّر، بينما إن أثرت في الإنسان تأثيراً يتيمياً، وهيجت شوقاً نفسانياً شهوانياً، تحرم الآلة.. تتبدّل هذه الحالة حسب الأشخاص، والناس ليسوا سواء»[2].

ويحزنه هؤلاء العاطلون عن العمل، ويعدّ عطالتهم نوعاً من الموت:

«إن أشدّ الناس شقاء واضطراباً وضيقاً، هو العاطل عن العمل؛ لأن العطل هو (عدمٌ) ضمن الوجود، أي موت ضمن حياة. أما السعي فهو حياة الوجود، ويقظة الحياة»[3].

وهكذا انطلق في رسائله وفي مواعظه وخطبه، وفي اتصالاته الشخصية، وفي الندوات والمؤتمرات والمناسبات، وفي المقالات التي كان يكتبها في الصحف –وهذه هي كل الوسائل التي أتيحت له في زمنه لطرح أفكاره– يعمل على إنقاذ الإيمان الذي كاد يضيع في ركام الأفكار المستوردة الدخيلة، وكانت وظيفة تلاميذه ليست إنقاذ إيمانهم وحدهم، بل هم مكلفون –أيضاً– بالحفاظ على إيمان غيرهم[4] من المسلمين في بيئاتهم المختلفة، ونشر الوعي الإسلامي حسب المنهج الذي اختطه النورسي لهم وليس الانغمار في السياسة.

---

(1) سلوة المرضى، ص ٣٢.
(2) الكلمات، ص ٨٦٩.
(3) المصدر نفسه، ص ٨٨٧.
(4) المصدر نفسه، ص ٨٧٧.

رابعاً: ودعا إلى بعث الفكر الإسلامي من جديد، وإلى تجديد علوم الشريعة؛ لأن «الشريعة الغراء. باعتبارها أزلية قديمة، ستبقى إلى الأبد، والنجاة والخلاص من ظلم النفس وشرّها، يكون بالاعتماد على الإسلام، وبالتمسك بحبل الله المتين، والاستمتاعُ الحقيقي بالحرية الحقة جزء من الإيمان، ومستمدّ منه»[1].

وبيّن فضل الإسلام على البشرية في العديد من رسائله وخطبه:

«كانت هناك هوّات سحيقة بين طبقات البشر قبل الإسلام، مع بُعد شاسع عجيب بينهما؛ فاستوجب تعدد الأنبياء، وظهورهم في وقت واحد، كما استوجب تنوع الشرائع وتعدّد المذاهب.. ولكن الإسلام أوجد انقلاباً في البشرية، فتقارب الناس، واتحد الشرع، وأصبح الرسول واحداً»[2].

«وعقب حوادث آذار الشهيرة، اعُتقل مع الذين اعُتقلوا، وفي المحكمة سأله الحاكم العُرْفي:

سمعتُ أنك من المطالبين بأحكام الشريعة؟

فأجاب: لو أن لي ألف نفس لما ترددت بفدائها في سبيل حقيقة واحدة، وحكم واحد من أحكام هذه الشريعة. إنها طريق السعادة والعدالة والفضيلة المحضة».

«وكان في هذه الفترة، جُلُّ همّه تحكيم الشريعة في كل الشؤون، والرد على أولئك الذين وضعوا نصب أعينهم إبعاد الشريعة عن الحياة العامة، وغرّتهم الحياة الأوربية وبهرجها»[3].

خامساً: العلماء:

وأولى العلماء الذين هم نمط آخر من الأمراء، عناية كبيرة، فهم ذوو مسؤوليات كبيرة تجاه العامة والخاصة، وهم أولى الناس بابتعاث الفكر الإسلامي، وحمل أعباء الدعوة إلى الله، ولهذا عرّفهم بواجبهم تجاه المدّ العلماني الإلحادي، وحذّرهم من الركون إلى الظالمين، كما حذرهم من انتقاد بعضهم بعضاً بقصد التشهير، لأن

---

(1) عبد الفتاح أبو غدة، ص ٢٤٣.

(2) الكلمات، ص ٨٦٤.

(3) عبد الفتاح أبو غدة، ص ٢٤٣.

المستفيد من تناحرهم وتنابذهم هم الملاحدة، وطالبهم أن يكونوا قدوات عملية للناس، وشكر الواعين والعاملين منهم.. ترى هذا وأضعافه في العديد من رسائله.

سادساً: رجال الحكم:

لم يكن الأستاذ النورسي منعزلاً عن أصحاب الإدارة والقرار، وسيرة حياته تحكي لنا عن لقائه السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان محمد رشاد، ومصطفى كمال، والنواب في «مجلس المبعوثان»، وغيرهم.. كان يلتقي بعضهم، ويراسل بعضهم الآخر، ويخطب ويحاضر أمام آخرين، كما فعل في مجلس الأمة.. كان يطالبهم بحقوق الأمة عليهم، ويذكّرهم بواجباتهم تجاه الدين والأمة والوطن.. وكان يلين أحياناً كما في رسالته إلى السلطان عبد الحميد، والرئيس جلال بايار، ورئيس الوزراء عدنان مندريس، ويشتد أحياناً أخرى، خاصة مع الكماليين الملاحدة، وزعيمهم مصطفى كمال.

سابعاً: والحق إن الأستاذ النورسي لم يكن يوفر أحداً في دعوته، مسلماً وغير مسلم، أمياً ومتعلماً، عاملاً وعالماً وفلاحاً وطالباً، كما لم يكن ليوفر مناسبة سعيدة أو حزينة، عامة أو خاصة، إلا ويذكّر بدعوته، وبأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها ويدعو الآخرين إلى السعي معه في سبيل إنجاز ما يمكن إنجازه منها.

أهدافه: كان الهدف الرئيس للأستاذ -رحمه الله تعالى- إنقاذ الإيمان، ليعود الناس إلى دينهم، ويقيموا بيوتهم ومجتمعهم ودولتهم على الإسلام، يقول الأستاذ:

«إن غايتي إصلاح الأسس التي يُبنى عليها الإيمان، فإذا أصبح الأساس صلباً قوياً، فلا يؤثر فيه مؤثر بعد، حتى الزلازل..»[1].

فليس له من غاية في هذه الحياة، سوى إنقاذ الإيمان، وإعادته إلى القلوب التي خَوَت، وإلى الحياة، بعدما ران عليه ما ران من الضلالات والإلحاد، الذي يسعى إلى القضاء عليه، وفي القضاء على الإيمان قضاء على الأمة في الدنيا والآخرة. لذلك ركّز جلّ مساعيه على بيان (حقيقة الإيمان) التي تبعث الطمأنينة في الفرد، والسعادة في المجتمع، بدلاً من تقديم وصفات اجتماعية غير قابلة للتطبيق.

---

(1) أسيد إحسان قاسم، ص ٢١.

وهذا الهدف النبيل ضروري جداً لأي جماعة تحترم نفسها، وتسعى لتحقيق طموحاتها السامية، يقول الأستاذ:

«إن لم يكن لفكر الجماعة غاية وهدف مثالي، أو نُسيت تلك الغاية، أو تنوسيت، تحوّلت الأذهان إلى أنانيات الأفراد، وحامت حولها، أي يتقوى (أنا) كل فرد، وقد يتحدد ويتصلّب، حتى لا يمكن خرقه، ليصبح (نحن) فالذين يحبون (أنا) أنفسهم، لا يحبون الآخرين حباً حقيقياً»[1].

أما الأهداف الأخرى التي سوف تنبثق بشكل طبيعي من هذا الهدف الكبير، فكثيرة نذكر منها:

- **القضاء على الجهل بنشر العلم**، وتعميم المدارس والجامعات في أنحاء الدولة، ولم يألُ جهداً في ذلك، فقد اتصل بالسلطان عبد الحميد وحاور وزير داخليته، من أجل إنشاء جامعة في شرقي الأناضول، تكون على غرار الجامع الأزهر، ثم اتصل من بعده بالسلطان محمد رشاد، من أجل هذه الغاية، ولكنه لم يفلح، مع أنه قدّم بين يدي السلطانين دفوعاً مقنعة، وبيّن مصلحة الدولة والأمة في ذلك، ثم عاود المطالبة أيام الكماليين، وبقيت جامعة الزهراء حلماً يداعب خياله طوال عمره المديد، وكان ذا نظر ثاقب في إنشاء (الزهراء) التي لو أُنشئت، وتعلم الشعب الكردي في شرقي الأناضول، وعرف ربه ودينه، لما حصل الذي حصل ويحصل الآن في تركيا الطورانية العلمانية.

كما دعا إلى الأخذ بالعلوم الحديثة، وتدريسها إلى جانب العلوم الدينية، ولم يرفضها لأنها جاءت من أوروبا، لأن الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها فيلتقطها. وعدّ الجهل من ألدّ أعداء الأمة، إلى جانب الفقر والاختلاف والاستبداد، وكان يرى أن العلم كفيل بالقضاء على هذه الأعداء الثلاثة.

ولهذا رأيناه يتبحر في مختلف العلوم الدينية والكونية، ويؤلف ويكتب ويحاضر، ضارباً بنفسه وبإخوانه العلماء والمتعلمين أروع الأمثال في التعلق بالعلم، وبالدعوة إليه.

- **القضاء على الفقر**، عن طريق العمل والكسب الحلال، وعن طريق العلم.
- **القضاء على الاستبداد**، بالدعوة إلى الشورى، وتحكيم شرع الله والقرآن الذي

---

[1] الكلمات، ص ٨٦٣.

ينص على الشورى (وأمرهم شورى بينهم) ويأمر نبيّه الكريم بمشاورة أصحابه: (وشاورهم في الأمر). والعلم والإيمان كفيلان بالاستبداد والمستبدين.

ظهر هذا في مقالاته الصحفية، وفي مقابلاته مع رجال الإدارة والحكم، وفي تجواله بين الناس، وأحاديثه معهم.

- **الدعوة إلى وحدة المسلمين أو اتحادهم**، ونبذ الخلافات فيما بينهم، تمهيداً لتحقيق هدف عظيم، هو عودة الخلافة الإسلامية التي قضى عليها الكماليون العلمانيون. يقول النورسي، موجهاً كلامه إلى طوائف الأمة: «إن لم تزيلوا هذا النزاع، فإن الزندقة الحاكمة الآن حكماً قوياً، تستغل أحدكما ضد الآخر، وتستعمله أداة لإفناء الآخر[1].

إذن .. كان يدعو إلى الاتحاد والوحدة دائماً، ويتجنب كلياً الأمور التي تعوق الاتحاد وتعرقله كتلك الاختلافات التي ينشبها الأعداء بين المسلمين أفراداً ودولاً وشعوباً مستغلاً غرقها في بحار التخلف والجهل والغفلة، ولهذا كان يقول لتلاميذه داعياً إياهم إلى التآخي والتوادّ والتحابّ: «إخوتي. إن الإسلام لاحاجة له بخدمتكم وعملكم، بقدر ما هو في حاجة ماسة إلى تساندكم وترابطكم. فعليكم أن تقرؤوا بين حين وآخر، كلاً من رسائل: (الإخلاص) و (الأخوة) و (الهجومات الستة) فيما بينكم، ذلك لأن تساندكم وإخلاصكم وثباتكم وصلابتكم السائدة فيما بينكم منذ البداية، ستكون مفخرة لهذه البلاد»[2].

لماذا؟ لأنها مظهر حقيقي من مظاهر الوحدة الصغرى التي ستكون نواة لوحدة فصائل الأمة الإسلامية وشعوبها.

وكان دائم الهتاف: «أيها العالم الإسلامي. إن حياتك في الاتحاد» وإن موتك في الفرقة والاختلاف.

---

(1) الكلمات، ص ٨٦٣.

(2) أسيد إحسان قاسم، ص ٨٩.

لأنه كان يرى أن من أهم أسباب ضعف المسلمين وتأخرهم، هذه الفرقة وهذا التمزق الذي طالما سعى إليه الأعداء حتى حقّقوه. ولا يمكن للمسلمين أن ينهضوا إلا بوحدتهم أو اتحادهم على أقل تقدير.

في نظريات التغيير: هناك عدة نظريات للتغيير، وقد أحصاها الأستاذ منير شفيق بالتالي:

١ – نظرية العمل المسلح: كفعل الأمير عبد القادر الجزائري، وعمر المختار، وعبد الكريم الخطابي.

٢ – نظرية العمل السياسي: وهي نظرية جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

٣ – نظرية الثورة المتحالفة: وهي التي انتهجها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في تحالفه مع الأمير محمد بن سعود.

٤ – النظرية التربوية: وهي التي تحضّر لمرحلة أخرى أو أكثر، وينتقل فيها العمل إلى الجهاد، وهي نظرية الإمام الشهيد حسن البنا.

٥ – نظرية الثورة على الحاكم الجائر. كما حدث في اليمن.

٦ – نظرية استخدام مختلف أشكال المقاومة ضد الاستعمار المباشر، كما حدث في ثورة الجزائر.

٧ – نظرية التحريض اليومي، كثورة الإمام الخميني في إيران»[1].

نظرية التغيير عند النورسي

الغريب أن الأستاذ منير شفيق لم يذكر الإمام النورسي بين هؤلاء، ولعل السبب يعود إلى عدم اطلاعه على التراث الفكري الهائل لبديع الزمان، أو لأن أحداً لم يبلور نظرية النورسي في التغيير.

ومن خلال اطلاعي على بعض تراث النورسي، أرى مشابه كثيرة في عملية التغيير بينه وبين ما جاء به الأستاذ البنا، أي النظرية التربوية التي تتطور إلى عمل سياسي لم تنفكّ عنه يوماً، برغم لعن النورسي للشيطان والسياسة معاً، وقد تتطور إلى عمل جهادي –لو أتيح لها ذلك في قابل الأيام– كما فعل الأستاذ البنا عندما

---

[1] منير شفيق، في نظريات التغيير، ص ٥٧ و٥٨ بتصرف.

خاض مع إخوانه في مصر وسورية والأردن وفلسطين حرباً مع يهود، وكما جاهد النورسي وإخوانه في القفقاس.

على أي حال، لم يكن في مشروع بديع الزمان أيّ توجه نحو العمل المسلح داخل تركيا، ضد الحكام الملاحدة من الكماليين، برغم إعلانهم الحرب الضروس على الإسلام وعلمائه والدعاة إليه، ولذلك لم يؤيد ثورة الشيخ سعيد بيران على النظام الكمالي القومي العلماني، لأسباب نعرف بعضها، ولا نعرف بعضها الآخر.

يقول الدكتور محسن عبد الحميد:

«ولإيمان الأستاذ بالتغيير في إطار انتشار الوعي الاجتماعي، والدعوة السلمية، فإنه لا يبيح الجهاد المسلح الداخلي الموجه إلى حكام المسلمين، لأن ذلك لايخدم – من وجهة نظره– إلا العدوّ الخارجي المتربص بالمجتمع الإسلامي من حيث هو كلّ.

فهو يقول: «إن الجهاد المسلّح لا يحشد كلياً إلا ضدّ العدو الخارجي، والصراع المسلح داخل البلاد الإسلامية، هو ما يصبو إليه العدو الخارجي، إذ إن سفك دماء المسلمين فيما بينهم، أمر يهمهم» ويضيف: «إن الجهاد في أي مجتمع إسلامي، إنما هو جهاد معنوي، يتوصل إليه عن طريق تنوير الأفكار، وإصلاح القلوب والأرواح.

ويكون جهاداً إيجابياً بنّاء لصدّ التخريبات المعنوية، ويُتصرف فيه وفق سرّ الإخلاص. فهناك بون شاسع بين الجهاد في الخارج والجهاد في الداخل. فنحن نبذل قصارى جهودنا للحفاظ على استقرار البلاد، وأمنها، وفق العمل الإيجابي البنّاء..

في هذا الوقت، الفرق عظيم جداً بين الجهاد الداخلي والجهاد الخارجي»[1].

وقارىء تراث الإمام النورسي لابد له من أن يلاحظ اتسام نظريته الإصلاحية التغييرية بالسمات التالية:

١ – التدرج في الإصلاح والدعوة إلى التغيير. يقول الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه عن النورسي:

كان النورسي «يؤمن (بالنظام)، ويبعد (الفوضى) ويؤمن (بالتدرج) ولا يعتقد (بالطفرة). فالنظام والتدرج هما أساس الوجود كله، وأي خروج عليهما، يعني إدخال الفساد عليه، وهو خروج واضح على تعاليم القرآن الكريم، والسنة النبوية

---

(١) محسن عبد الحميد، ص ٦٢ و٦٣ عن ملحق أمير داغ: ص٢١٤.

الشريفة، والقرآن هو الكون المقروء، والسنّة هي الكون المطبق في الحياة العملية».

«وفي ضوء ذلك، فإن النورسي يدعو إلى تغيير اجتماعي منظم، يتمسك بقانون التطور الفطري التدريجي، ويجب أن يبدأ من القاعدة، ويصعد إلى القمة، لا العكس، لأن العكس سيؤدي إلى زعزعة الحياة الاجتماعية، ويحصل منه شر مستطير، وتخريب كبير».

فهو يقول: «إن من يشق طريقاً في الحياة الاجتماعية، ويؤسس حركة. لا يستثمر مساعيه، ولن يكون النجاح حليفه، مالم تكن الحركة منسجمة مع القوانين الفطرية التي تحكم الكون، بل تكون جميع أعماله لأجل التخريب والشر»[1].

«إذن فلا بدّ أن يكون قانون التغيّر في حياته هو التغيّر التدريجي، حتى لا يختلّ توازن الحياة، فيؤدي إلى نتائج عكسية»[2].

ولهذا بدأ بالأهم ثم المهم في سلّم الأولويات الذي هو منهج الأنبياء. ومن هنا كان تركيزه على إعادة الإيمان إلى النفوس والقلوب والحياة، وكل الأهداف الأخرى كانت تابعة للإيمان، ونابعة منه، يقول: «إنه لابد لهذا العصر من مجدد له شأنه، ليقوم بتجديد الدين والإيمان، وتجديد الحياة الاجتماعية والشريعة، وتجديد الحقوق العامة، والسياسة الشرعية، ولكن أهم تلك الوظائف هو التجديد في مجال المحافظة على الحقائق الإيمانية فهو أجل وأعظم تلك الوظائف الثلاث. لذا، تبقى دوائر «الشريعة» و«الحياة الاجتماعية والسياسية في الدرجة الثانية والثالثة والرابعة، بالنسبة إلى دائرة الإيمان»[3].

أي أنه كان قد وضع سلم أولوياته على النحو التالي: الإيمان، ثم التربية، ثم الشريعة. ولهذا تدرج في دعوته الإصلاحية من الفرد؛ عاملاً، وفلاحاً، وطالباً، وعالماً، ورجل إدارة وسياسة، يغرس في نفوسهم العقيدة والإيمان والأخلاق ومبادىء الإسلام وفضائله، ثم ينتقل إلى البيت؛ زوجاً وزوجة وأولاداً وأسرة،

---

(1) اللمعات، ص ١٦٠

(2) محسن عبد الحميد، ص ٦٢.

(3) الملاحق، ص ١٩٦.

ثم إلى المجتمع بكل ما فيه من شرائح وطبقات وفئات، ثم إلى الأمة الإسلامية.

واستمر النورسي في تطبيق نظريته التغييرية عن طريق:

- نشر حقائق الإسلام بالأدلة والبراهين.
- وتكوين الجيل المؤمن الصالح.
- وبثّ الوعي الإسلامي بخطورة الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين.
- وتهيئة صفوف الأمة للوقوف أمام الموجة اللادينية الطاغية.
- ونقل التربية الإسلامية إلى داخل البيوت».

«وقد نجح أسلوبه هذا إلى حد بعيد»[1].

٢ - وكان منهجه في الإصلاح والتغيير يقوم على الوسطية، وعدم التعصب أو المغالاة في التحيز. يقول الأستاذ النورسي:

- «أيها العالم الإسلامي، إن حياتك في الاتحاد.
- إن كنت طالباً للاتحاد، فاتخذ هذا دستورك.
- لابد أن يكون «هو حق» بدلاً من (هو الحق)

إذ يحق لكل مسلم أن يقول في مسلكه ومذهبه:

«إن هذا حق» ولا أتعرض لما عداه، فإن يكن جميلاً فمذهبي أجمل.

بينما لايحق له أن يقول في مذهبه:

(إن هذا هو الحق، وما عداه باطل، وما عندي هو الحسن فحسب، وغيره قبيح وخطأ).

إن ضيق الذهن وانحصاره على شيء، ينشأ من حب النفس، ثم يكون داء، ومنه ينجم النزاع»[2].

وبهذا السلوك يكون التعاون والاتحاد، وبغيره يكون التنازع والتخاصم والتنابذ، وهو مايسعى إليه أعداء هذه الأمة. وعلى هذه الوسطية ربّى تلاميذه،

---

(١) محسن عبد الحميد، ص ٦٥.

(٢) الكلمات، ص ٨٩٦.

ليصلح بهم الناس، وبهذه الوسطية نفسّر موقفه من حضارة الغرب وفلسفته وعلومه، وموقفه من المدارس الدينية والمدارس الحديثة، ومن العلماء المبتدعين، ومن الصوفية المنعزلين.

٣ - وكانت دعوته شمولية، تحاول أن تكون مكافئة للقوى الثقافية المعادية، لأن المدّ الإلحادي في تركيا كان يشمل جميع جوانب الحياة، وكان يركّز على الأصول والكليّات في الإسلام، قبل الفروع والجزئيات، ولذلك جاءت دعوة النورسي متّسمة بسمة الشمول والكلية[1]. اسمعه يقول:

«إن رسائل النور لا تُعمّر تخريبات جزئية، ولا ترمّم بيتاً صغيراً مهدماً، بل تعمر أيضاً تخريبات عامّة كليّة، وترمّم قلعة عظيمة، صخورها كالجبال، تحتضن الإسلام وتحيط به.. وهي لا تسعى لإصلاح قلب خاص ووجدان معين، بل تسعى أيضاً -وبيديها إعجاز القرآن- لمداواة القلب العام المجروح، وضماد الأفكار العامة المكلومة بالوسائل المفسدة التي هيئت لها، وركمت منذ ألف سنة، وتنشط لمداواة الوجدان العام الذي توجه نحو الفساد نتيجة تحطم الأسس الإسلامية وتياراته وشعائره التي هي المستند العظيم للجميع، ولاسيما عوام المؤمنين. نعم إنها تسعى لمداواة تلك الجروح الواسعة الغائرة بأدوية إعجاز القرآن والإيمان.

فأمام هذه التخريبات الكلية الرهيبة، والشكوك الواسعة، والجروح الغائرة، ينبغي وجود حجج دامغة، وأعتدة مجهزة بدرجة حق اليقين، وبقوة الجبال ورسوخها، ووجود أدوية مجربة لها من الخواص ما يفوق ألف ترياق وترياق، ولها من المزايا ما يضاهي علاجات لا حد لها»[2].

ولأجل هذا كان يخاطب سائر فئات المجتمع حكاماً ومحكومين، علماء وعامة: «وانطلاقاً من هذا الشمول فقد سار في الخطوط العامة المتوازية في دعواته، حيث إصلاح الفرد، وإصلاح البيت، وإصلاح المجتمع، وإظهار الحقائق بإزالة اللبّس لدى طلاب النور، وتفنيد شبه العلمانيين الملحدين، وشبه غير

---

(١) الوصيف، ص ١٠٥.

(٢) الملاحق، ص ١١٨.

المسلمين، وكشف الحقيقة حول دعوته لدى المسؤولين، وفي دفاعاته في المحاكم، وإظهار الحقائق حول الأفكار السائدة في تركيا على زمانه، وبذل مساعيه المضنية لأجل عودة الخلافة الإسلامية.

ولم يقصر الدعوة على جانب معرفي معين، بل كانت شاملة لجميع العلوم والمعارف التي شملها الإسلام. يقول عن الرسائل التي هي مرآة دعوته: «إن رسائل النور تسد الحاجة التي تخص الحقائق الإسلامية، فلا تدع حاجة إلى مراجعة مؤلفات أخرى»[1].

٤ – وكانت دعوة عالمية، وليست إقليمية.. كان يحث على ترجمة رسائله إلى اللغة العربية، وإلى اللغات الأخرى التي تنطق بها سائر الشعوب الإسلامية، بل وغير الإسلامية، من أجل التبشير بأفكاره وتعاليمه المنبثقة من القرآن والسنة، وكان يأمل أن يقوم علماء من الأزهر أو من بلاد الشام بترجمتها إلى اللغة العربية، كما أوفد أحد طلبته إلى العراق ومصر من أجل هذا الغرض.

ولذلك كان يضع أمله في العرب، وليس في قومه الأكراد، ولا في الأتراك، شأنه شأن أي عالم، أو مجدّد، أو مصلح إسلامي، يعمل على النهوض بأمة الإسلام، وليس أحقّ من العرب المسلمين بالنهوض، واستلام زمام القيادة. قال في خطبته الشامية: «إنني أنتظر من العرب أن يوحّدوا صفوف المسلمين، ويعيدوا إلى الإسلام سالف عهده، وأملي كبير بأن الأجيال القادمة سوف تعيش اليوم الذي يمتدّ فيه الإسلام إلى شتى أنحاء العالم»[2].

ويعرض بالقوميين العرب العلمانيين المنادين بالقومية العنصرية البعيدة عن الإسلام، كدعاة القومية التركية الطورانية فيقول: «وكذا العرب قد سرى الإسلام فيهم، فلا يمكنهم الانفصال عنه والانفصام، فلا معنى للعرب ولا مكانة إلا إذا اقترنت عروبتهم بإسلامهم. فالقومية خطر عظيم»[3].

ولذلك كان يؤكد على اللغة العربية، والحروف العربية، يعلّمها تلاميذه، ويدعو إلى أن تكون خطبة الجمعة باللغة العربية، ولا يرى إلقاءها بغير العربية تحت أي ذريعة.

---

(١) الوصيف، ص ٢٧٧–٢٧٨.

(٢) عبد الفتاح أبو غدة، ص ٢٤٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٤٩.

ونظرته إلى الأتراك كنظرته إلى العرب في تمسكهم بالإسلام، وأنهم جزء لا يتجزأ منه. يقول: «إن الأتراك قوم لا يمكنهم الانفصال عن الإسلام، وهم جزء غير قابل للانفصال عن الأمة الإسلامية، حتى إن غير المسلم فيهم لا يكون تركياً، فكل تركي مسلم»[1]. وليذهب أدعياء القومية ودعاتها إلى الجحيم.

ولكن أبرز صفة يمكن وصف دعوته بها، هي أنها إسلامية تُعنى بقضايا العقيدة، لاسيما وجود الله ووحدانيته، واليوم الآخر (الحشر) وما يتعلق به من الأمور الغيبية. وكلّ خصائص دعوته التي أشرنا إليها، وهي: (التدرج، والوسطية، والشمول، والعالمية) من خصائص هذا الدين.

وسائله في تحقيق تلك الملامح الإصلاحية

كان هامش الحرية الذي أتيح للأستاذ النورسي ضيّقاً وضيّقاً جداً، وقد تقدم أنه قضى زهرة عمره في المنافي والسجون والمعتقلات.. ثمانية وعشرين عاماً قضاها سجيناً ومنفياً بعيداً عن الناس وعن تلاميذه، ولهذا لم يتح له من الوسائل إلا النزر اليسير للتبشير بدعوته الإصلاحية، في السجون، حيث اهتدى على يديه عدد من المجرمين المحبوسين معه، وفي المنافي، حيث كان يشدّ أنظار الفلاحين البسطاء إليه بمنظره ودينه وأوراده واستقامته وصبره، كما شدّ عدداً من أفراد الشرطة القائمين على مراقبته، وكذلك بعض القضاة الذين كانوا يستمعون إلى مرافعاته ودفوعه الرائعة المقنعة ببراهينها وأدلتها المصحوبة بحماسة وجرأة وفاعلية..

وقد استثمر الأستاذ النورسي كل الوسائل المتاحة، من اتصالات شخصية، إلى الخطب والمواعظ والمحاضرات في المناسبات المختلفة، إلى الكتابة في الصحف، إلى تأليف رسائل النور التي كانت -وما تزال- دروساً قرآنية توافق أفهام هذا العصر، وكانت كل رسالة منها هي سعيد النورسي نفسه.

وكان يكتب (المكاتيب) أي الرسائل الشخصية إلى تلاميذه وإلى الهيئات الإسلاميّة وغير الإسلامية، ويجيب بها سائليه، كما كان يكتب الرسائل إلى الحكام والعلماء والوجهاء، ينصحهم حيناً ويأمرهم وينهاهم حيناً آخر.

---

[1] الكلمات، ص ٨٩٦

وقد ظهرت مواهبه المتعدّدة، ومؤهلاته العقلية والمنطقية والعلمية، في محاوراته ومناظراته.. ظهر فيها عقله المرتّب، ومنطقه العلمي السليم، فكان يلزم الخصوم حدودهم، ويكسب ذوي الضمائر الحيّة والمخلصين المغرَّر بهم. نذكر من حواراته ومناظراته، ما كان مع وزير داخلية السلطان عبد الحميد، ومع مفتي مصر الشيخ محمد بخيت المطيعي، ومع القائد العام للجيش الروسي خال القيصر نقولا، ومع مصطفى كمال، ومع حسين باشا رئيس إحدى العشائر الكردية الذي جاء يدعوه إلى الاشتراك في ثورة الشيخ سعيد بيران ضدّ النظام الكمالي العلماني، وحواره مع رؤساء العشائر الكردية والتركية، لتحطيم اليأس، وبعث الأمل في النفوس. ولعلّ أروع تلك المحاورات والمناظرات ما كان مع المحققين والقضاة الذين كانوا يحققون معه، لإدانته والإيقاع به، وقد كانت دفوعه ومرافعاته، في المحاكم العلنية، وسيلة فعّالة في نشر أفكاره وآرائه بل كانت خير وسيلة لشرح غاية دعوته، وفضح مرامي الذين يقفون ضدّه، ومقاصدهم المعادية للإسلام والداعين إليه.

وكل نظرية تغييرية تحتاج إلى الموارد البشرية بأعدادها ونوعيتها وإلى الخبرات اللازمة، والتقنية المكافئة، وإلى الوقت الكافي لعملية التغيير، وإلى المكان الجاهز والصالح لتلك العملية[1].

وهذه كلها لم تكن متوافرة لدى بديع الزمان، لطبيعة الظروف القاسية التي كان يعيشها، والتي فرضها عليه أعداء الإسلام.

صحيح أنه كان مقتنعاً بضرورة الإصلاح والتغيير، وقد استطاع إقناع أتباعه بهما، بما كتب وشرح لهم، وبالوضع الشائن الذي عرّاه أمامهم، حتى جعلهم ينفصلون عن هذا الواقع نفسياً، بفقد انبهارهم به، وبأن المستقبل يجب أن يكون لهذا الدين.

وصحيح أنه استطاع تحويل أحاسيس اليأس والإحباط إلى مشاعر إيجابية بنّاءة، واستطاع تعبئتهم تعبئة نفسية سليمة، وولّد لديهم طاقة جديدة يحدوها الأمل بمستقبل أفضل.

هذا كله صحيح، ولكن التحديات كانت أكبر من الوسائل المتاحة له.. كانت الرياح الهوج تعترض سفينة حياته التي تتقاذفها وتلاطمها أمواج القوى السياسية

---

(1) بشير الجابري، ص ٧١

والثقافية المعادية.. كان الناس أكثر الناس يسبحون مع تيار الإلحاد والانفلات، وكان هو وتلاميذه يسبحون ضدّ ذلك التيار الهائل الهادر الذي حشد له الحاشدون الحشود التي أرادوا بها القضاء المبرم على الإسلام، في نفوس أبناء الإسلام وحُماته، والإجهاز على علمائه والدعاة إليه على علم وبصيرة. فالقوى لم تكن متكافئة، ولم يكن الخصوم أخلاقيين في خصومتهم، لأنهم كانوا يسيرون في ركاب أفكار وحضارة بلا أخلاق.

ولذلك .. قضى الأستاذ نحبه، ولمّا يقض وطره في إنقاذ الإيمان، وعودة الإسلام إلى الحياة والمجتمع من جديد.

الأبعاد الفكرية والاجتماعية والسياسية لدعوته

كانت الدولة العثمانية، ثم الدولة الكمالية، غارقتين في الجهل والفقر والتخلف.. أميّة ضاربة أطنابها في المجتمع التركي عامة وفي الأرياف الفقيرة خاصة.. أميّة في القراءة والكتابة، وأميّة فكرية قاتلة.. وبشكل أخصّ، في كل ما له صلة بهذا الإسلام، حتى غدا الإسلام بمبادئه العظيمة، مشوّهاً، تتناوشه سهام الغدر من كل جانب، جهل مطبق في العبادات التي كانت صورية شكلية لا روح فيها.. وجهل أشدّ بتعاليم الإسلام ومبادئه القويمة، التي تعرّضت لأشرس حملة يهودية صليبية علمانية حاقدة عليها.. على الإسلام، وعلى تاريخه، وعلى رجاله، حتى رسول الإسلام، صلى الله عليه وسلم لم يسلم من طعنات الطاعنين به، والمسلمون عاجزون جهلة، وعلماء الإسلام بين منكفىء على نفسه، وفار بدينه، وبين منحرف مبتدع سائر في ركاب الحاكمين.

عاصر بديع الزمان هاتين المرحلتين الحالكتين، ووعى الداء، وعرف الدواء، فتسلّح بالعلم والإيمان والإخلاص، ثم انطلق يجوب المدن والقرى والأقاليم التي كانت تابعة للدولة العثمانية، وقابل السلاطين والوزراء ورجال الحكم والإدارة، وطالبهم بالإصلاح، وبتحمل مسؤولياتهم تجاه الأمة والوطن، كما دعا أبناء الشعب إلى اليقظة والنهوض من الهوّة السحيقة التي تردّوا فيها منذ زمن، فتعرض لما تعرّض له من بلاء السجن والتعذيب والنفي، والملاحقة والمطاردة والتضييق عليه وعلى تلاميذه طلاب مدرسة النور دون أن تلين له قناة، أو تضعف له عزيمة، أو تخور له إرادة، وكان لرسائله وخطبه ومواعظه ومرافعاته ومقالاته الصحفية، آثارها في نفوس

الناس، فقد عرّى الدعاوى العلمانية، وفضح أهداف القوميين والبلاشفة والماسونيين، وصحح الفكرة المشوّهة عن الإسلام ونبيّ الإسلام، عن طريق رسائل النور التي انتشرت في أنحاء تركيا، فانبثقت عنها صحوة فكرية، تمثلت في سيل المطبوعات والكتب في العديد من المدن التركية، واستطاعت أن تضغط على رجال السياسة، وجلهم من العلمانيين، فاستجابوا لبعض مطالب المسلمين، وتزلفوا للشعب المسلم، فأعاد رئيس الوزراء عدنان مندريس -رحمه الله- الأذان إلى لغته العربية، وسمح بفتح العديد من مدارس الأئمة والخطباء، وبفتح الجامعات والكليات الشرعية الإسلامية.

بل إننا نستطيع أن نزعم، أنّ المدّ الإسلامي المعاصر في تركيا، ما هو إلا نتيجة طبيعية، لتلك الصحوة الاجتماعية الإسلامية التي حمل عبأها طلاب مدرسة النور، مستهدين بالرسائل النورانية التي تركها لهم شيخهم الإمام بديع الزمان النورسي، صاحب هذه المدرسة وما حوت من تراث فكري ضخم، كان الشموع وكان المنارات، في ليل تركيا البهيم...

إن المدّ الإسلامي المعاصر في تركيا، فكرياً وسياسياً، وعلمياً، واقتصادياً وتربوياً، هو من ثمرات بديع الزمان الذي غرس غراسها منذ بداية هذا القرن وشرع يتعهدها بالتربة الصالحة، والسقاية والرعاية، حتى آتت أكلها، وصارت قاب قوسين أو أدنى من الهدف الذي سعى الإمام النورسي إلى تحقيقه قرابة ثلاثة أرباع القرن.

* * *

﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا، إنك أنت العليم الحكيم﴾

وصلى الله على سيّدنا وقائدنا وقدوتنا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه إلى يوم الدين.